نسور الشرق

صلاح الدين الأيوبى

آمال حسن

مؤسسة دار الفرسان

للنشر والتوزيع

١٥ش ابراهيم خليل المطرية

ت : ٢٢٥١١١١٠ – موبايل : ٠١٢٢٩٨٧١٢٣٧

اسم الكتاب :صلاح الدين الأيوبى
المؤلـــف :آمال حسن
الناشـــر : مؤسسة دار الفرسان
تصميم الغلاف: فرى برنت- ٠١٠٤٤٧٠٦٤٥
رقم الإيداع : ٩٥٥٦
الطبعة الأولى : ٢٠١٨

فهرسة أثناء النشر

حسن ، آمال
صلاح الدين الأيوبى/ إعداد آمال حسن ؛ . – القاهرة
.- ط١: مؤسسة دار الفرسان للنشر والتوزيع ، ٢٠١٨
١٦٠ ص ؛ ٢٤ سم
تدمك : ٩٧٨-٩٧٧-٦١٦٩-٩٦-٨
١ –
ب. العنوان ٩٣٥.٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

(فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن
قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا)

صدق الله العظيم
طه ١١٤



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تعتبر مصر أطول تاريخ مستمر لدولة في العالم لما يزيد عن ٧٠٠٠ عام قبل الميلاد، وعلى مدار تاريخها حكمتها حضارات مختلفة بداية من الفراعنة والفرس والبطالمة والروم وعهد الخلفاء الراشدون بعد فتحها من جانب عمرو بن العاص، والخلافة الأموية والعباسية والطولونيون والإخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك ثم العهد العثماني، والأسرة العلوية، ومروراً بدولة يوليو ٥٢وانتهاء بثورة ٣٠ يونيو

ورسمت تلك الحضارات تاريخ المصري على مدار القرون الفائتة، وظهرت شخصيات كانت لها دور كبير في كتابة تاريخها، ونرصد أهم زعيمًا فى العصر الإسلامى من أبرز من استطاعوا أن تكون لهم بصمة كبيرة في رسم تاريخ مصر والعالم الإسلامى.

فهناك العديد من الأسماء والشخصيات التي ذكرها التاريخ، والتي كان لها أثر كبير على البشرية والعالم بشكلٍ عام، حيث إنّهم رغم موتهم أصبحوا خالدين، ويشار إلى أنّ الكاتب الإنجليزي مايكل هارت قام بتأليف كتابٍ ذكر فيه أهمّ مائة شخصية تاريخية، وذلك بالاعتماد على نسبةٍ تأثيرهم في التاريخ.

في تاريخ العالم شخصيات تاريخية مهمة رزقها الله مواهب متعددة ومميزة تختلف عن الآخرين واستطاعت تغيير حياتهم وحياة الناس المحيطين بها، وذلك من خلال ما قامت به من إنجازات مفيدة لم يسبق لها

مثيلاً من قبل، فحُفرت أسماء أصحابها في سجلات التاريخ بإنجازاتها وبقي الناس يذكرونها ويدرسون ما قامت به حتى هذا اليوم لأثرهم القوي في تغيير جانب من جوانب الحياة.

كتبت صفحات التاريخ عن الكثير من الشخصيّات البارزة التي أثرت بشكل كبير في حياة الناس، وما زال الناس حتى يومنا هذا ينتفعون بما قدموه من ، ومبادئ، وعلم، وأسس للحياة البشريّة.

كانت مصر منارة لكل شعوب المنطقة ، فقد كانت تذخر بالعديد من الشخصيات التى اثرت التاريخ المصرى بما قدمته له من اعمال يشهد لها التاريخ ، شخصيات اثرت الحياة المصرية بالعديد والعديد من الانجازات التى لاتزال تتحدث عنها الاجيال ، وفى مختلف المجالات ، وسيعرض الكتاب بعض تلك الشخصيات محاولة منا فى القاء بعض الضوء على تلك الشخصيات العظيمة.

من هو صلاح الدين الأيوبى

هو الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين والدنيا يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدُويني التكريتي (٥٣٢ – ٥٨٩ هـ / ١١٣٨ – ١١٩٣ م)، المشهور بلقب صلاح الدين الأيوبي قائد عسكري أسس الدولة الأيوبية التي وحدت مصر والشام والحجاز وتهامة واليمن في ظل الراية العباسية، بعد أن قضى على الخلافة الفاطمية التي استمرت ٢٦٢ سنة.

قاد صلاح الدين عدّة حملات ومعارك ضد الفرنجة وغيرهم من الصليبيين الأوروبيين في سبيل استعادة الأراضي المقدسة التي كان الصليبيون قد استولوا عليها في أواخر القرن الحادي عشر، وقد تمكن في نهاية المطاف من استعادة معظم أراضي فلسطين ولبنان بما فيها مدينةالقدس، بعد أن هزم جيش بيت المقدس هزيمة منكرة في معركة حطين.

كان صلاح الدين يقول بمذهب أهل السنة والجماعة، وروي أن عبد القادر الجيلاني دعا له عندما رآه بالبركة فيه، خلال "زيارة خفية" لنجم الدين أيوب وأسرته بغداد سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٨م،وهذا يفسر أتباعه الطريقة القادرية فيما بعد وبعض العلماء كالمقريزي، وبعض المؤرخين المتأخرين قالوا: إنه كانأشعريًا، وإنه كان يصحب علماء الصوفية الأشاعرة لأخذ الرأي والمشورة، وأظهر العقيدة الأشعرية.

تسامح صلاح الدين الأيوبى وبسالته :

يشتهر صلاح الدين الأيوبى بتسامحه ومعاملته الإنسانية لأعدائه، لذا فهو من أكثر الأشخاص تقديرًا واحترامًا في العالمين الشرقي الإسلامي والأوروبي المسيحي، حيث كتب المؤرخون الصليبيون عن بسالته في عدد من المواقف، أبرزها عند حصاره لقلعة الكرك في مؤاب، وكنتيجة لهذا حظي صلاح الدين باحترام خصومه لا سيما ملك إنجلترا ريتشارد الأول "قلب الأسد"، وبدلاً من أن يتحول لشخص مكروه في أوروبا الغربية، استحال رمزًا من رموز الفروسية والشجاعة، وورد ذكره في عدد من القصص والأشعار الإنگليزية والفرنسية العائدة لتلك الحقبة.

نشأة صلاح الدين الأيوبى ونسبه

ولد صلاح الدين في تكريت في العراق عام ٥٣٢ هـ/١١٣٨م في ليلة مغادرة والده نجم الدين أيوب قلعةتكريت حينما كان واليًا عليها، ويرجع نسب الأيوبيين إلى أيوب بن شاذي بن مروان من أهل مدينة دوين فيأرمينيا، وقد اختلف المؤرخون في نسب العائلة الأيوبية حيث أورد ابن الأثير في تاريخه أن أيوب بن شاذي بن مروان يرجع إلى الأكراد الروادية وهم فخذ من الهذبانية.

ويذكر أحمد بن خلكان ما نصه: «قال لي رجل فقيه عارف بما يقول، وهو من أهل دوين، إن على باب دوين قرية يُقال لها "أجدانقان" وجميع أهلها أكراد روادية، وكان شاذي قد أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد ومن هناك نزلواتكريت، ومات شاذي بها وعلى قبره قبة داخل البلد».

وهو ما يؤكده سعيد عبد الفتاح عاشور وجمال الدين الشيال وعبد المنعم ماجد، بينما يرفض بعض ملوك الأيوبيين هذا النسب وقالوا: «إنما نحن عرب، نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم".»

الأيوبيون نفسهم اختلفوا في نسبهم فالملك المعز إسماعيل الأيوبي صاحب اليمن أرجع نسب بني أيوب إلى بني أمية وحين بلغ ذلك الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب قال: "كذب إسماعيل ما نحن من بني أمية أصلاً"، أما الأيوبيون ملوك دمشق فقد أثبتوا نسبهم إلى بني

مرة بن عوف من بطون غطفان وقد أحضر هذا النسب على المعظم عيسى بن أحمد صاحب دمشق وأسمعه ابنه الملك الناصر صلاح الدين داود.

وقد شرح الحسن بن داوود الأيوبي في كتابه "الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية" ما قيل عن نسب أجداده وقطع أنهم ليسوا أكرادًا، بل نزلوا عندهم فنسبوا إليهم. وقال: "ولم أرَ أحداً ممن أدركتُه من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النسب".

كما أن الحسن بن داوود قد رجّح في كتابه صحة شجرة النسب التي وضعها الحسن بن غريب، والتي فيها نسبة العائلة إلى أيوب بن شاذي بن مروان بن أبي علي محمد بن عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز بن هُدْبة بن الحُصَين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مُرّة بن عوف بن أسامة بن بيهس بن الحارث بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نَشبَة بن غيظ بن مرة بن عوف بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالكين قريش .

وكان نجم الدين والد صلاح الدين قد انتقل إلى بعلبك حيث أصبح واليًا عليها مدة سبع سنوات وانتقل إلى دمشق، وقضى صلاح الدين طفولته في دمشق حيث أمضى فترة شبابه في بلاط الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي أمير دمشق.

تعليمه :

إن المصادر حول حياة صلاح الدين خلال هذه الفترة قليلة ومبعثرة، لكن من المعروف أنه عشق دمشق عشقًا شديدًا، وتلقى علومه فيها، وبرع

في دراساته، حتى قال عنه بعض معاصريه أنه كان عالمًا بالهندسة الإقليدية والرياضيات المجسطية وعلوم الحساب والشريعة الإسلامية.

وتنص بعض المصادر أن صلاح الدين كان أكثر شغفًا بالعلوم الدينية والفقه الإسلامي من العلوم العسكرية خلال أيام دراسته.

وبالإضافة إلى ذلك، كان صلاح الدين ملمًا بعلم الأنساب والسير الذاتية وتاريخ العرب والشعر، فحفظ ديوان الحماسة لأبي تمام عن ظهر قلب، أيضًا أحب الخيول العربية المطهمة، وعرف أنقى سلالاتها دمًا.

صفات صلاح الدين الأيوبى

الرصيد الخلقي لصلاح الدين:

تميزت شخصية السلطان صلاح الدين الأيوبي برصيد أخلاقي كبير ساعده على تحقيق أهدافه العظيمة والتي من أهمها؛ الشجاعة، والكرم، والوفاء والتسامح، والحلم، والعدل والعفو، والمروءة، وشدة لجوه إلى الله، ومحبته للجهاد، وصبره واحتسابه، وحرصه على العلم، والتواضع .. إلخ. وإليكم أظهر هذه الصفات وأميز هذه الأخلاق:

أولاً: تقواه وعبادته: قال تعالى :

" ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذَّبوا ...) (الأعراف، : ٩٦) وتقوى الله وتحقيق العبودية الشاملة لله تحفظ العبد من كيد الأعداء ومكرهم قال تعالى : "وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط" (آل عمران، ١٢٠)، ولا شك أن تقوى الله وعبادته والخشية منه، وحسن الظن به والاعتماد عليه هي أول ما يجب أن يمتاز به المسلم، وأفضل ما ينبغي أن يتصف به، لئن ذلك يجعل المسلم أسداً كاسراً لا يعرف الهزيمة، وبطلاً مقداماً لا يهاب المنية، وشجاعاً كراراً لا يخشى جباراً، ولا يهاب عدواً، وهذه السمة من الإيمان والعبادة قد تحققت في القائد البطل صلاح الدين

(١) ، وإليكم ما كتبه القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد الذي عاصره اجتمع به وعرف أخباره، فحدثنا عن ما رأى:

عقيدته:

وكان رحمه الله – حسن العقيدة، كثير الذكّر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، فتحصَّل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التَّشبيه، غير مارق سهم النظَّر فيها إلى التَّعطيل والتَّمويه، جارية على نمط الاستقامة، موافقة لقانون النظر الصحيح مرضية عند أكابر العلماء، وكان – رحمه الله – قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدِّين النِّيسابوري – رحمه الله – عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدة حرصه عليها يعلمَّها الصَّغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم في الصّغر، ورأيته وهو يأخذ عليهم وهم يقرؤونها من حفظهم بين يديه، رحمه الله.

الصلاة:

وأما الصلاة : فإنه – رحمه الله – كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، حتى أنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلىّ إلا جماعة، وكان إذا مرض يستدعي الإمام وحده ويكلّف نفسه القيام، ويصلىّ جماعة، وكان يواظب على السنّن الرَّواتب، وكان له ركعات يصليها إذا استيقظ بوقت في الليل، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبُّح، وما كان يترك الصُّلاة ما دام عقله عليه، ولقد رأيته – قَّدس الله روحه – يصلّي في مرضه الذي مات فيه

[1] صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحررّ القدس، علوان ص ١٣٩.

قائماً، وما ترك الصلاة إلا في أيام الثلاثة التي تغيّب فيها ذهنه وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلّى (٢).

الزكاة:

وأما الزكاة، فإنه مات – رحمه الله تعالى – ولم يحفظ ما وجبت به عليه من الزكاة وأما صدقة النَّقل فإنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال، فإنه مَلَك ما ملك ومات ولم يخلّف في خزانته من الذَّهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وجُرماً واحداً ذهباً صُورياً، ولم يخلفّ مُلكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك، رحمة الله عليه.

صوم رمضان:

فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعّددة، وكان القاضي الفاضل قد تولّى ثبت تلك الأيام، وشرع – رحمه الله – في قضاء تلك الفوائت ذلك بالقدس الشَّريف في السّنة التي توفي فيها، وواظب على الصَّوم مقداراً زائداً على شهر، فإنه كان عليه فوائت رمضانين، شغلته الأمراض ومُلازمة الجهــاد عن قضائها وكان الصَّوم لا يوافق مزاجه، فألهمه الله تعالى الصَّوم بقضاء الفوائت (٣) فكان يصوم وأنا أُثبتُ الأيام التي يصومها، لأن القاضي كان غائباً، والطبيب يلومه وهو

[٢] سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ابن شداد ص ٥٨.
[٣] المصدر نفسه ص ٥٩.

لا يسمع، ويقــول : (لا أعلم ما يكون) فكأنه كان مُلهماً ببراءة ذمته – رحمة الله عليه – ولم يزل حتى قضى ما كان عليه(٤).

وأما الحج :

فإنه كان لم يزل عازماً عليه، وناوياً له، سيما في العام الذي توفي فيه، فإنه صَّمم العزم عليه، وأمر بالتأهب وعُملت الرِّفادة ولم يبق إلا المسير، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت، وفراغ اليد عما يليق بأمثاله، فأخَّره إلى العام المستقبل، فقضى الله ما قضى، وهذا شيء اشترك في العلم به الخاصُّ والعام (٥) .

سماعة للقرآن الكريم:

وكان رحمه الله – يحب سماع القرآن العظيم، حتى أنه كان يستخير، إمامه، ويشترط أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم، متقناً لحفظه وكان يستقرئ من يحضره في الليل وهو في بُرجه (٦) – الُجزئين والثلاثة والأربعة وهو يسمع وكان يستقريء – في مجلسه العام – من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته فقَّربه، وجعل له حظــاً من خاصِّ طعامه، ووقف عليه وعلى أبيه جُزءاً من مزرعة، وكان – رحمه الله تعالى

---

[٤] المصدر نفسه ص ٥٩.
[٥] سيرة الناصر صلاح الدين لابن شداد ص ٥٩.
[٦] المصدر نفسه ص ٥٩.

– رقيق القلب، غزير الدمعة، إذا سمع القرآن يخشع قلبُه، وتدمع عينه في معظم أوقاته (٧) .

سماعه للحديث الشريف:

كان – رحمه الله تعالى – شديد الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير، فإن كان ممّن يحضر عنده استحضره وسمع عليه، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه، والمختصين به، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له؛ وإن كان ذلك الشيخ مّمن لا يطرق أبواب السَّلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سَعى إليه وسمع عليه، تردد إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية – حرسها الله تعالى – وروى عنه أحاديث كثيرة وكان رحمه الله – يحب أن يقرأ الحديث بنفسه، وكان يستحضرُني في خلوته، ويحضر شيئاً من كتب الحديث، ويقرأ هو، فإذا مّر بحديث فيه عبرة رقَّ قلبه ودمعت عينه (٨).

تعظيمه لشعائر الدِّين:

وكان – رحمة الله عليه – كثير التعظيم لشعائر الدين، قائلاً ببعث الأجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنّة والمسيء بالنار، مصدّقاً بجميع ما وردت به الشرائع، منشرحاً بذلك صدره مبغضاً للفلاسفة والمعطِّلة، والدَّهرية ومن يعاند الشّريعة. ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر،

[٧] المصدر نفسه ص ٦٠.
[٨] المصدر نفسه ص ٦١.

بقتل شاب نشأ كان يقال له السَّهروردي، قيل عنه إنه كان معانداً للشرائع ومبُطلاً وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره، وعرَّف السُّلطان به، فأمر بقتله وصلبه أياماً فقتله.

حسن ظنه بالله:

وقال ابن شداد : وكان – قدس الله روحه – حسن الظن بالله، كثير الاعتماد عليه، عظيم الإنابة إليه، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه: وذلك أن الفرنج – خذلهم الله – كانوا نازلين ببيت نوبة، وهو موضع قريب من القدس الشريف – حرسها الله تعالى – يكون بينها بعض مرحلة وكان السلطان بالقُدس، وقد أقام يَزَكاً (٩) على العدو محيطاً به، وقد سير إليهم الجواسيس والمخُبرين، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصُّعود إلى القدس ومحاصرته، وترتيب القتال عليه

اشتد خوف المسلمين بسبب ذلك فاستحضر الأمراء وعرَّفهم ما قد دهم المسلمين من الشدة، وشاورهم في الإقامة بالقدس، فأتوا بمجاملة باطنها غيُر ظاهرها، وأصّر الجميع أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه، فإنها مخاطرة بالإسلام وذكروا أنهم يقيمون هم، ويخرج هو – رحمه الله – بطائفة من العسكر يكون حول العدوّ كما كان الحال بعكّا، ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم، ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدَّفع عنه وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصرٌّ على أن يقيم بنفسه، علماً منه إن لم يُقم ما يقيم أحد.

---

[٩] سيرة السلطان الناصر صلاح الدين ٦١ . يَزكَاً : طلائع.

فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم جاء من عندهم من أخبر أنهم لايقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده، حتى يكون هو الحاكم عليهم والذين يأتمرون بأمره، فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة، وضاق صدره، وتقسّم فكره، واشتّدت فكرته.

يستطرد بن شداد : ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة – وكان الزمان شتاء، وليس معنا ثالث إلا الله تعالى، ونحن نُقسِّم أقساماً ونرتَّب على كل قسم مقتضاه، حتى أخذني الإشفاق عليه، والخوف على مزاجه فإنه كان يغلب عليه اليُبس (١٠) ، فشفعت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة، فقال رحمه الله – : لعلك جاءك النوم ؟ ثم نهض، فما وصلت إلى بيتي وأخذت لبعض شأني إلا وأذّن المؤذن، وطلع الصبح، وكنت أصلّي معه الصبح في معظم الوقت، فدخلت عليه، وهو يمُرّ الماء على أطرافه، فقال: ما أخذني النو أصلاً، فقلت : قد علمتُ، فقال: من أين ؟ فقلت: لأني ما نمت، وما بقي وقت للنوم، ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه، فقلت له: قد وقع لي واقع وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى، فقال : وما هو ؟ فقلت له : الإخلاد إلى الله تعالى والإنابة إليه، والاعتماد في كشف هذه الغُمَّة عليه فقال : وكيف نصنع ؟ فقلت : اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الرَّواح، ويصلي على العادة وبالأقصى، موضع مَسْرَ النبي صلى الله عليه وسلم – ويقدِّم المولى التصدُّق بشيء خفية على يد من يَثِق به ويصلَّي المولى ركعتين بين الأذان والإقامة، ويدعو الله في سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح، وتقول في باطنك : يا إلهي، قد انقطعت أسبابي الأرضية في

---

[١٠] يبدو أن صلاح الدين كان يعاني من ارتفاع ضغط الدم الشرياني.

نُصرة دينك، ولم يبقَ إلا الإخلاد إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل، فإن الله أكرم من أن يخّيب قصدك، ففعل ذلك كله، وصليت إلى جانبه على العادة، وصلّى الركعتين بين الأذان والإقامة، ورأيته ساجداً، ودموعه تتقاطر على شيبته وعلى سّجادته، ولا أسمع ما يقول. فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جُردْيك – وكان على اليَزَك – يُخبر فيها أن الفرنج مختبطون، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء، ووقفوا إلى قائم الظهيرة، ثـــم عــادوا إلى خيامهم.

وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك. ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا، فذهبت الفرنسيسّية (١١) إلى أنهم لابّد لهم من محاصرة القدس، وذهب الأنكتار (١٢) وأتباعه إلى أنه لا يخاطر بدين النصرانية ويرميهم في هذا الجبل مع عُدْم المياه فإن السُّلطان كان قد أفسد جميع ما حول القدس من المياه وأنهم خرجوا للمشورة ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهر الخيل، وأنهم قد نصُّوا على عشرة أنفس منهم وحكّموهم فبأي شيء أشاروا به لا يخالفونهم ولما كانت بُكرة الاثنين جاء البشير يخبُر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرَّملة، فهذا ما شاهدته من آثار استنابته وإخلاده إلى الله تعالى، رحمه الله (١٣).

---

[١١] أي الصَّليبيون اللاتين من الفرنسيين، الذين تألفت منهم غالباً الحملتان الصَّليبيتان الأولى والثانية.

[١٢] المقصود بالأنكتار الملك ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا.

[١٣] سيرة السلطان صلاح الدين لابن شداد ص ٦٤.

ثانياً: عدله:

قال تعالى : "إن الله يأمر بالعدل والإحسان" (النحل، آية:٩٠) وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضي وجوبه قال تعالى : "يا أيها الذين ءامنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلْوُا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعلمون خبيراً " (النساء: ١٣٥).

وقد كانت صفة العدل من أبرز صفات صلاح الدين الأيوبي القيادية، وكان يؤمن بأن العدل أحد نواميس الله في كونه وكان يقينه بأن العدل ثمرة من ثمرات الإيمان وكان تعلم ذلك من استاذه الكبير الذي جّدد معلم العدل وسار عليه صلاح الدين السلطان نور الدين محمود زنكي، فقد كان صلاح الدين عادلاً، ناصراً للضعيف على القوي وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير، وعجوز هرمة، وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً، على أنه كان في جميع أزمانه قابلاً لما يعرض عليه من القصص، كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم وكان يجمع القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل، ولم يردّ قاصداً للحوادث والحكومات، ثم يجلس مع الكاتب ساعة، إما في الليل أو النهار، ويوقّع على كل قصة بما يُطلق الله على قلبه، ولم يردّ قاصداً أبداً ولا منتحلاً وطالب حاجة، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة، ولقد كان رؤوفاً بالرعيّة، ناصراً للدين، مواظباً على تلاوة القرآن العزيز، عالماً بما فيه، عاملاً به، لا يعدوه أبداً، رحمة الله عليه، وما استغاث إليه أحد إلا

وقف وسمع قضيته، وكشف ظلامته، وأخذ قصته، ولقد اشتغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له: ابن زُهير على تقي الدين – ابن أخيـــه – فأنفذ إليه ليحضره إلى مجلس الحكم، فما خلصَّه إلى أن أشهد عليه شاهدين معروفين مقبولي القول أنه وكّل القاضي أبا القاسم أمين الدين – قاضي حماة – في المخاصمة والمنازعة، فحضـــر الشـــاهدان، وأقاما الشهادة بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة، وإنكار الخصـــم (١٤) ، قـــال القاضي ابن شـــداد. فلما ثبتت الوكالة أمرت أبا القاسم بمساواة الخصم فساواه – وكان من خواص السلطان – رحمه الله – ثم جرت المحاكمة بينهما، واتجهت اليمين على تقي الدِّين، وانقضى المجلس على ذلك، وقطعنا عن إحضاره دخول الليل، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه، وأعظمهم عنده، ولكنه لم يُحابه في الحق (١٥) .

ومما يدل على عدله أنه كان يقف بجانب خصمه أمام القضاء دون أن يرى في ذلك حرجاً أو غضاضة لأن الحق في نظره أحق أن يتّبع، وقد حدث أن أدعى تاجر يدعى (عمر الخلاطي) على صلاح الدين أنه أخذ منه أحد مماليكه ويدعى "سنقر" واستولى على ما كان لهذا المملوك من ثروة طائلة بدون وجه حق، وعندما تقدم التاجر المدعي بظلامته إلى القاضي ابن شداد، أظهر صلاح الدين حلماً كبيراً ورضي أن يقف موقف الخصم من صاحب الدعوى، وأحضر كلٌّ من الطرفين من لديه من شهود وما لديه من أدلة يثبت بها رأيه، حتى اتضح في النهاية – عند القاضي كذب الرجل

[١٤] سيرة السلطان الناصر لابن شداد ص ٦٦.
[١٥] المصدر نفسه ص ٦٦.

وإدعاءه الباطل على صلاح الدين ومع كل هذا رفض صلاح الدين أن يترك المدعي يخرج من عنده خائباً فأمر له بخلعة ومبلغ من المال ليدلل على كرمه في مواضع المؤاخذة مع القدرة (١٦) ومما يدل على عدله سهره على مصالح الرعية إزالته بعض المكوس والضرائب تخفيفاً عن الناس، ورفعاً للظلم عن كواهلهم وقد ذكر ابن جبير من مناقب صلاح الدين وآثاره التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا وأنه أزال كثيراً من المكوس والضرائب التي كانت مفروضة على الناس على كل ما يباع ويشترى مما دقّ أو جلّ، حتى كان يؤدى على شرب ماء النيل المكس، فألغى صلاح الدين هذا كله (١٧) .

وقد كانت هناك ضريبة قدرها سبعة دنانير ونصف تفرض على كل حاج في طريقه إلى الحجاز لتعمير مكة والمدينة، ومساعدة الناس هناك وقد اشتطّ الفاطميون في جمع هذه الضرائب، ومن يعجز عن دفعها يعذب عذاباً أليماً، ولكن صلاح الدين ألغى ذلك المكس، واستعاض عنه معونة مالية تعادل قيمة ما يؤخذ من الحجاج تدفع كل عام لأهل الحجاز، وبذلك أراح الحجاج من عنت الجباة، ولاسيما أن نسبة كبيرة منهم كانوا فقراء لايستطيعون دفع ما يؤخذ منهم، فكفى الله المؤمنين على يدي هذا السلطان العادل حادثاً عظيماً وخطاباً أليما (١٨) .

[١٦] المصدر نفسه ص ٦٩، صلاح الدين، علوان ص ١٤٣.
[١٧] رحلة ابن جبير نقلاً عن صلاح الدين، علوان ص ١٤٣.
[١٨] المصدر نفسه، صلاح الدين صلا ١٤٤.

إن العدل أشرف أوصاف الملك وأقوم لدولته، لأنه يبعث على الطاعة ويدعو إلى الألفة، وبه تصلح الأعمـــال وتنمي الأموال وتنتعش الرعية وتكمل المزِّية وقد ندب الله عز وجل الخلق إليه وحثهم عليه (١٩).

ثالثاً: شجاعته:

إن الشجاعة من أحمد الأوصاف التي يلزم الملك أن يتصف بها ضرورة وأن تكون له طبعاً فيتطبع بها ليحسم بهيبته مواد الأطماع المتعلقة بقلوب نظرائه، ويحصل منه حماية (البيضة ورعاية) المملكة والذب عن الرعية (٢٠).

لقد كان صلاح الدين – من عظماء الشجعان، قويَّ النفس، شديد البأس عظيم الثبات، لا يهوله أمر، ولقد رأيته – رحمه الله – مرابطاً في مقابلة عَّدة عظيمة من الفرنج، ونُجُدُهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيّف وسبعون مركباً على عكّا وأنا أعّدها من بعدة صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لا يزداد إلا قّوة نفس.

ولقد كان – رحمه الله – يعطي دستوراً في أوائل ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدّتهم الكثيرة، يقول ابن شدّاد وقد سألت باليان بن بارزان، وهو من كبار ملوك الساحل – وهو جالس بين يديه، رحمه الله، يوم انعقاد الصلح – عن عِدتّهم، فقال الترجمان عنه إنه يقول : كنت

[19] النهج المسلوك في سياسة الملوك ص ١٠٣.
[20] المصدر نفسه ص ١٠٣.

وصاحب صَيْدا – وكان أيضاً من ملوكهم وعقلائهم – قاصدين عسكرنا من صُوْر، فلّما أشرفنا عليه تحازرناه، فحزره هو بخمسمائة ألف، وحزرتهم أنا بستمائة ألف، أو قال عكس ذلك، فقلتُ: فكم هلك منهم ؟ فقال: أما بالقتل فقريب من مائة ألف، وأما بالموت والغرق فلا نعلم، وما رجع من هذا العالم إلا الأقل، وكان لابدّ له من أن يطوف حول العدوّ في كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريباً منهم، وكان صلاح الدين، إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفيّن ومعه صبي واحد وعلى يده جنيب، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، ويرتّب الأطلاب، ويأمرهم بالتقدّم والوقوف في مواضع يراها، وكان يشارف العدوّ ويجاوره (٢١) .

قال ابن شدّاد : ولقد قرئ عليه جزء من الحديث بين الصفين وذلك أني قلت له: قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشَّريفة ولم يُنْقل أنه سمع بين الصفّين، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً، فأذن في ذلك، فأحضر جزءٌ وهناك أحضر من له به سماع، فقُرئ عليه ونحن على ظهور الّدواب بين الصفّين، ونمشي تارة، ونقف أخرى، وما رأيته استكثر العدو أصلاً، ولا استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير، يذكر بين يديه الأقسام كلها، ويرتب على كل قسم مقتضاه من غير حدَّة ولا غضب يعتريه، رحمه الله.

ولقد انهزم المسلمون في يوم المصافّ الأكبر بمرج عكّا، حتى القلب ورجاله، ووقع الكُوس (٢٢) والعَلَم (٢٣) وهو – رضي الله عنه – ثابت

---

[٢١] سيرة السلطان الناصر صلاح الدين لابن شداد ص ٧٣.
[٢٢] الكُوس: ضوجات من نحاس شبه الترس الصغير.

القدم في نفر يسير قد انحاز إلى الجيل يجمع الناس ويردَّهم ويخجّلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى نُصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس (٢٤)، ولم يزل مصابراً لهم، وهم في العدة الوافرة، إلى أن ظهر له ضعفُ المسلمين، فصالح وهو مسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقعون النُّجد، ونحن لا نتوقعها، وكانت المصلحة في الصُّلح، وظهر ذلك لما أبدت الأقضية والأقدار ما كان في مكنونها (٢٥) .

رابعاً: كرمه:

والكرم لباب الأخلاق الفاضلة، ومدارج الفضيلة وُصِفَت الأخلاق به وشرفت بالانتساب إليه من باب إضافة الصِّفة للموصوف، فكُلُّ شيء يشرف في بابه يوصف به (٢٦) ، وعن أنس رضي الله عنه قال : كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم : أحسن النَّاس، وأجود الناس، وأشجع النَّاس(٢٧) ، وعن جابر رضي الله عنه قال: ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء – قَطُّ. فقال : لا (٢٨) . وقال الشافعي :

ولقد كان كرم السلطان صلاح الدين الأيوبي أظهر من أن يُسطّر، وأشهر من أن يُذكر، لكن نُنَبِّه عليه جملة، وذلك أنه مَلَكَ ما مَلَك ومات،

---

[٢٣] كان العلم السلطاني الخاص بصلاح الدين أصفر وفي وسطه رسُم نسر أحمر.
[٢٤] المصدر نفسه.
[٢٥] سيرة الناصر صلاح الدين، لابن شداد ص ٧٤.
[٢٦] الأخلاق بين الطبع والتطبيع ص ١٥٧.
[٢٧] البخاري رقم ٣٠٤٠.
[٢٨] البخاري رقم ٦٠٣٤.

ولم يوجد في خزائنه من الفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصرية، ومن الذهب إلا جُرم واحدي صُوْري (٢٩) وقد اشتهر صلاح الدين بالكرم ووزع ما احتوته قصور الفاطميين من جواهر وأموال على أمرائه وأصحابه، ولم يحتفظ لنفسه بشيء، وكان يهب الأقاليم، فعندما فتح آمد طلبها منه قرأ أرسلان، فأعطاها إياه (٣٠) . يُعطي في وقت الشدة كما يُعطي في وقت السعة. وقال مرة وهو يُعبِّر عن كرمه: والله لو وُهِبَتْ الدنيا للقاصد الآمل، لما كنت استكثرها له، ولو استفرغت له جميع ما في خزانتي، لما كان عوضاً مما أراقه من حُرِّ ماء وجهه في استمناحه إياي (٣١).

وكان من شدة كرمه: أنه إذا علم أن في خزائنه مالاً، لا يستطيب تلك الليلة حتى يفّرق هذا المال جوداً، وإذا منح إنساناً مالاً ثم قيل له إن هذا القدر لا يكفيه زاده الضعف (٣٢) ولا يرى شيخاً إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه، وما أُحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على والديه، وجبر قلبه ومصابه، وأعطاه، وإن كان له من أهله كبيرة يعتمد عليه سلّمه إليه، وإلا أبقى له من الخير ما يكفي حاجته، وسلمّه إلى من يعتني بتربيته ويكفلها. وقد وصف العماد الأصفهاني كرمه فقال : كان بإخراج ما يدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرماً. وكان يجود بالمال قبل الحصول ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول، فإذا عرف بالوصول حمل، وقع عليه، بأضعافه، ولاجيه أحد بالرد إذا سأله، بل يلطف له كأنه استمهله ويقول ما

[٢٩] سيرة الناصر صلاح الدين لابن شداد ص ٧٠.
[٣٠] سيرة الناصر صلاح الدين ص ٧٠.
[٣١] تاريخ الأيوبيين في مصر، محمد سهيل طقوش ص ٢٢١.
[٣٢] تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص ٢٢١.

عندنا شيء الساعة (٣٣) . ويعطي فوق ما يؤمِّل الطالب، ويبسط وجهه للمعطي بسط من لم يعطه شيئاً (٣٤) ، وقد قُدِّر ما وهبه من الخيل للحاضرين معه في الجهاد مدة ثلاث سنين، منذ أن نزل الفرنج على عكا في رجب سنة ٥٨٥هـ إلى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة ٥٨٨هـ، باثني عشر ألف رأس من حصان وحجر (٣٥) ، وإكديش طمر (٣٦) . ويعلقّ ابن شداد على ذلك بقوله : ومن شاهد عطاياه يستقل هذا القدر. هذا بالإضافة إلى ما كان يطلقه من المال من أثمان الخيل المصابة في القتال، لأنه ما عُقر في سبيل الله فرس أو جُرح إلا وعوَّض مالكه بمثله، ولم يكن له فرس يركبه غلا وهو موهوب أو موعود به، وصاحبه ملازم في طلبه (٣٧) . وقد توفي ولم يحفظ عنده ما يجب فيه الزكاة، لأن صدقة التطوع استنزفت جميع ما ملكه من الأموال. وقد ملك ما ملك ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً، وديناراً واحداً ذهباً، ولم يخلف داراً ولا عقاراً، ولابستاناً، ولا قرية، ولا مزرعة، ولا شيئاً من أنواع الأملاك وهذا دليل واضح على شدة كرمه (٣٨) وقال القاضي ابن شداد: وسمعت منه يوماً يقول في معرض حديث جرى: يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كمن ينظر في التُّراب، فكأنه أراد بذلك نفسه (٣٩) .

[٣٣] الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٦٢٩.
[٣٤] سيرة السلطان الناصر ص ٤٩ لابن شداد.
[٣٥] حجر : الأنثى من الخيل.
[٣٦] الطمر: الفرس الجواد الطويل القوائم الخفيف أو المستعد للعدو.
[٣٧] تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص ٢٢٢.
[٣٨] تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص ٢٢٢.
[٣٩] سيرة السلطان الناصر صلاح الدين ص ٧١.

خامساً: اهتمامه بالجهاد:

كان صلاح الدين شديد المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الإرفاد لصدق وبرّ في يمينه، ولقد كان الجهاد وحبّه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا على من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه (٤٠) ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريح على مرج عكا، فلو لم يكن من البرج وإلا قتلته، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً وكان الرّجل إذا أراد يتقرب إليه يحثّه على الجهاد أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد، ولقد أُلّف له كتب عدّة في الجهاد، قال ابن شداد: وأنا ممّن جمع له فيه كتاباً جمعتُ فيه آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث رُوي فيه، وشرحتُ غريبها؛ وكان كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل وقال ولأحكين عنه ما سمعته منه: وذلك أنه كان قد أخذ كوكب، في ذي القعدة، سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وأعطى العساكر دستوراً، وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر وكان مقّدمه أخاه الملك العادل فسار معه ليودّعه ويحظى بصلاة العيد في القدس الشريف وسرنا في خدمته، ولما صلّى العيد في القدس وقع له أنه يمضي معهم إلى عَسْقَلان ويودعهم بعسقلان ثم يعود على طريق السّاحل يتفقد البلاد

---

[٤٠] المصدر نفسه ص ٧٦.

السّاحلية إلى عكّا، ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن لا يفعل، فإن العساكر إذا فأرقتنا نبقى في عّدة يسيرة، والفرنج كلهم بصور وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت وودَّع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا في خدمته على السّاحل طالبين عكّا، وكان الزمان شتاءً عظيماً والبحر هائجاً هيجاناً شديداً، وموجه كالجبال كما قال الله تعالى وكنت حديثَ عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندي حتى خُيِّل إلي أنني لو قال لي قائل إن جُزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا، لما كنت أفعل واستسخفت رأي من ركب البحر رجاءً لكسب دينار أو درهم، واستحسنت رأي من لا يقبل شهادة راكب بحر هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتمّوجه فبينما أنا في ذلك إذ التفت إلي رحمه الله وقال: أما أحكي لك شيئاً ؟ قلت : بلى قال : في نفسي؛ أنه متى يسَّر الله تعالى فتح بقية السّاحل قسَّمتُ البلاد، وأوصيت وودَّعتُ، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبّعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت. فعظمُ وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يخطر لي، وقلت له : ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى، ولا أقوى نيّة منه في نُصرة دين الله. فقال: وكيف ؟ فقلت : أما الشجاعة فلأن مولان ما يهوله أمر هذا البحر وهوله، وأما نُصرة دين الله فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص في الأرض حتى تطهر جميع الأرض منهم ... ثم قلت ما هذه إلا نية جميلة، ولكن المولى يُسيِّر في البحر العساكر، وهو سُور الإسلام ومنعته لا ينبغي له أن يخاطر بنفسه. فقال : أنا أستفتيك : ما أشرف الميتات ؟ فقلت : الموت في

سبيل الله. فقال غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات (٤١) ، ومن رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين وهو بالشام يريد الجهاد وطرد العدو من ديار المسلمين، ولكنّ أموراً عاقت صلاح الدين عن المبادرة إلى الجهاد فتألم السلطان لذلك ألماً شديداً، فكتب إليه القاضي الفاضل يخفف عنه وَقْعَ هذا الألم، ومما كتبه إليه: وأما تأسف المولى على أوقات ينقضي عاطلها من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، ويجّدد العوائق التي لا يوُصل إلى آخر حبلها فللمولى نيّة رِشده. أو ليس الله العالم بعبده، وهو سبحانه لا يَسْأل الفاعل عن تمام فِعْله لأنه غير مقدور له، ولكن عن النية لأنَّها محلُ تكليفِ الطاعةِ، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة وإذا كان المولى آخذاً في أسباب الجهاد وتنظيف الطُّرُق إلى المداد فهو في طاعة قد امتنَّ الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أصل في نُجْح موعدها، والثواب على قدر مشقته، وإنما عَظُم الحج لأجل جهده وبعد شُقته؛ ولو أنَّ المولى فتح الفتوح العظام في أقلّ الأيام؛ وفصل القضية بين أهل الإسلام، وأعداء الإسلام؛ لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت، وصحائف البِّر المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت (٤٢) .

سادساً: حلمه :

فالحلم أية حسن الخلق، وعنوان عُلُوِّ الهمة، فهو من أشرف الأخلاق، وأحقّها بذوي الألباب، لما جعل الله فيه من الطُّمأنينة، والسَّكينة، والحلاوة وسلامة العرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد ورفعة النفس عن تشفيها

---

[٤١] سيرة السلطان الناصر صلاح الدين ص ٧٩.

[٤٢] بيت المقدس والمسجد الأقصى، محمد سُرّاب ص ١١٢.

بالانتقام؛ فلا ينبل الرَّجلُ حتى يكون متخلقاً بهذا الخلق العظيم (٤٣) قال تعالى : "خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين " (الأعراف: ١٩٩).

فقد كان السلطان صلاح الدين الأيوبي حليماً كثيراً ما يعفو عن أصحاب الذنوب، حسن الخلق صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه، وكان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموزه – أي حذاء – فأخطأته ووصلت إلى السلطان ووقعت بالقرب منه فالتفت إلى الجهة الأخرى يتغافل عنها (٤٤) ، وقال القاضي شهاب الدين : نفرت بغلتي يوماً من الجمال وأنا راكب في خدمته، فزحمت ركبته حتى أقلقته من الوجع وهو يبتسم، وكذلك سرق من خزانته كيسان من الذهب المصري وأبدلا بكيسين من الفلوس فلم يعمل للمباشرين سوى صرفهم (٤٥) ، قال القاضي ابن شداد : ولقد كنت في خدمته بمرج عيون قبل خروج الإفرنج إلى عكّا، وكان من عادته أن يركب في وقت الركوب. ثم ينزل، فيُمدُّ الطعام، ويأكل مع الناس ثم ينهض إلى خيمة خاصه له ينام فيها، ثم يستيقظ من منامه، ويصليّ، ويجلس خلوة وأنا في خدمته، نقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه، ولقد قرأ عليَّ كتاباً مختصراً لسليم الرّازي (٤٦) ، يشتمل على الأرباع الأربعة في الفقه، فنزل يوماً على عادته، ومُدَّ الطعام بين يديه، ثم عزم على النهوض، فقيل

---

[٤٣] الأخلاق بين الطبع والتطبع ص ١٣٨.
[٤٤] الموسوعة الشاملة (٤٤٩/٢٤).
[٤٥] الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (٤٤٩/٢٤).
[٤٦] سيرة الناصر صلاح الدين ص ٨٥.

له : إن وقت الصلاة قد قرب، فعاد إلى الجلوس. وقال : نصليَّ وننام ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أُخلي المكان إلا ممّن لزم، فتقدّم إليه مملوك كبير محترم عنده، وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجران، أخّرها ساعة، فلم يفعل، وقدّم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده، وفتحها بحيث يقرأها، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه فقال: رجل مُستحق فقال: يوّقع له المولى، ها هي . فقال: ليست الدّواة حاضرة الآن، وكان جالساً في باب الخَركاه (٤٧) بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها، والدَّواة في صدرها، فقال له المُخاطب : هذه الدواة في صدر الخَرْكَاه ! وليس لهذا المعنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة لا غير، فالتفت فرأى الدَّواة، فقال: والله لقد صدَق. ثم امتّد على يده اليسرى، ومّد يده اليمنى فأحضرها، ووقع له، فقلت: قال الله تعالى في نبيه صلى الله عليه وسلم " وإنك لعلى خلق عظيم " وما أرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق، فقال : ما ضَّرنا شيء، قضينا حاجته وحصل الثواب ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس وأفرادهم لقام وقعد، ومن الذي يقدر أن يخاطب أحداً هو تحت حكمه بمثل ذلك، وهذا غاية الإحسان والحلم والله لا يضيع أجر المحسنين (٤٨).

لقد كان صلاح الدين يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول وهذه حكاية يندر أن يَسطر مثلها: وذلك أنه كان قد اتجه أحد ملوك الإفرنج – خذلهم الله بيافا، فإن

[47] الخَرْكَاه : الخيمة الكبيرة الفارسية أو نوع من الخيام.
[48] سيرة الناصر صلاح الدين ص ٨٦.

العسكر كان قد رحل عنهم، وبَعُدَ وتراجع إلى النّطرون، وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان للمجّد وثلاث معتادة، وجرد العسكر ومضى إلى قيساريه يتلقّى نجدتهم، عساه يبلغ منها غرضاً، وعلم الإفرنج الذين كانوا بيافاً ذلك، وكان بها الأنكتار (٤٩) ومعه جماعة، فجَّهز معظم من كان عنده في الرّكب إلى قيسارية، خشية على النجدة أن يتم عليها أمر، وبقي الأنكتار في نفر يسير لعلمهم ببعده عنهم وبُعد العسكر، ولما وصل – صلاح الدين – إلى قَيْسَاريَّة، ورأى النجدة قد وصلت إلى البلد واحتمت به، وعلم أنه ما ينال منهم غرضه، سرى من ليلته من أول الليل إلى آخره حتى أتى يافا صباحاً، والأنكتار في سبعة عشر فارساً وتقدير ثلاثمائة راجل، نازلاً خارج البلد في خيمة له، فصبَّحه العسكر صباحاً، فركب الملعون، وكان شجاعاً باسلاً صاحب رأي في الحرب، وثبت بين يدي العسكر، ولم يدخلها البلد فاستدار العسكر الإسلامي، بهم إلا من جهة البلد، وتعبّى العسكر تعبية القتال. وأمر السُّلطان العسكر بالحملة انتهاز الفرصة، فأجابه بعض الأكراد الأمراء بكلام فيه خشونه، حاصلة، تعتّبُ، لعدم التوفير في إقطاعه، فعطف عنان فرسه كالمغُضبَ، لعلمه أنهم لا يعملون في ذلك اليوم شيئاً وتركهم وانصرف راجعاً، وأمر بخيمته التي كانت منصوبة أن قُلعت، وانقضّ الناس عن العدوّ، متيقّنين أن السلطان في ذلك اليوم ربما صلب وقتل جماعة ... ولم يزل السلطان – سائراً حتى نزل بيازور وهي مرحلة لطيفة، فضرُبت له خيمة لطيفة هنالك، ونزل بها، ونزل العسكر في منازلهم تحت صايوانات (٥٠)، لطيفة كما جرت العادة في مثل ذلك الوقت، وما من الأمراء إلا من

[٤٩] الأنكتار : المقصود الملك ريتشارد قلب الأسد.
[٥٠] الصايوانات : مفرد صيوان – كلمة فارسية تعني القاء والخيمة.

يرعد خيفة، ومن يعتقد أنه مأخوذ مسخوط عليه. قال: ولم تحدّثني نفسي بالدخول عليه خيفة حتى استــدعاني. قال : قد خلت عليه وقد وصله من دمشق المحروسة فاكهة كثيرة، فقال: أطلبوا الأمراء حتى يأكلوا شيئاً. قال : فسُرّي عني ما كنت أجده، وطلبتُ الأمراء، فحضروا وهم خائفون فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطُّمأنينة والأمن والسَّرور، وانصرفوا عنه على عزم الرحيل، كأن يجر شيءٌ أصلاً (٥١) ، ولم يكن حلمه – رحمه الله – قاصراً على أتباعه ورعيته وجنده، وإنما تعدى ذلك إلى الأعداء الذين كانوا يحاربونه ويحاربهم (٥٢) ، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

سابعاً: محافظته على أسباب المروءة : فالمروءة :

هي جِماع مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وكمال الرُّجولة، فهي تبعث على إجلال صاحبها، وامتلاء الأعين بمهابته وحقيقة المروءة قوة للنفس، مبدأ لصدور الأفعال الجميلة عنها، المستتبعة للمدح شرعاً، وعقلاً وعُرْفا (٥٣)، وقال ابن القيم : وحقيقة المروءة: تجنُّبُ للدّنايا والرَّذائل من الأقوال، والأخلاق، والأعمال فمروة اللسان : حلاوته وطيبه، ولينه، واجتناء الثّمار منه بسهولة ويسر، ومروءة الخلق: سعته وبسطه للحبيب والبغيض، ومروءة المال: الإصابة ببذله في مواقعة المحمودة عقلاً، وعُرفاً، وشرعاً، ومروءة الجاه: بذله للمُحتاج إليه. ومروءة الإحسان:

[٥١] سيرة الناصر صلاح الدين ص ٨٨.
[٥٢] صلاح الدين الأيوبي، علوان ص ١٤٩.
[٥٣] التعريفات للجُرجاني ص ١١١.

تعجيله، وتيسيره وتوقيره وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه، فهذه مُرُوءَة البذل وأما مروءةُ الترك: فترك الخصام، والمعاتبة، والمطالبة، والممارة (٥٤) .

ولقد كان السلطان صلاح الدين كثير المروءة، نديَّ الوجه، كثير الحياء، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده، وما يخاطبه في شيء إلا وينجزه وكان يكرم الوافد عليه، وإن كان كافراً، يقول القاضي ابن شداد: ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صَيْدا بالنَّاصرة، فاحترمه وأكرمه، وأكل معه الطعام، ومع ذلك عرض عليه الإسلام فذكر له طرفاً من محاسنه وحثَّه عليه، وكان يُكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمَّن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده وينالهم من إحسانه، ولقد مّر بنا سنة أربع وثمانين وخمسمائة رجل جمع بين العلم والتصّوف وكان من ذوي الاقتدار، وكان مشتغلاً بالعلم، وحجّ ووصل زائراً لبيت الله المقّدس. ولما قضى لبُانته منه، ورأى آثار السُّلطان فيه، وقع له زيارته، فوصل إلينا في العسكر المنصور، وما أحسست به إلا وقد دخل عليّ في الخيمة، فلقيتُه ورحبتُ به، وسألته عن سبب وصوله، فأخبرني بذلك وأنه يؤثر زيارة السُّلطان لما رأى من الآثار الحميدة الجميلة فعرَّفت السُّلطان تلك الليلة وصول هذا الرّجل، فاستحضره وروى عنه حديثاً، وشكره عن الإسلام وحثّه على الخير، ثم انصرفنا، وبات عندي في الخيمة، فلّما صلَّينا الصبح أخذ يودّعني فقَّبحت له المسير بدون وداع

[٥٤] تهذيب مدارج السالكين (٦٩٧/٢ -٦٩٩)

السُّلطان، فلم يلتفت ولم يَلوِ على ذلك. وقال : قضيتُ حاجتي منه، ولا غرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته، وانصرف من ساعته، ومضى على ذلك ليالٍ، فسأل السُّلطان عنه، فأخبرته بفعله، فظهر عليه آثار التعتّب، كيف لم أخبره برواحه، وقال : وكيف يطرقنا مثل هذا الرّجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسُّه منا ؟ وشدد النكير علي في ذلك، فما وجدت بُدَّاً من أن أكتب كتاباً إلى محي الدين – قاضي دمشق – كلفته فيه السؤال عن حال الرّجل، وإيصال رقعة كتبتها إليه طيّ كتابي، وأخبرته فيها بإنكار السُّلطان رَوَاحه من غير اجتماعه به وحسنَّتُ له فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك، فما أحسست به إلا وقد عاد إليّ، فكتبت رقعة وأعلمته بذلك، فكتب إلي يقول: تحضره معك ففعلت ذلك، فرحب به وانبسط معه واستوحش له، وأمسكه أياماً، ثم خلع عليه خلعة حسنة، وأعطاه مركوباً لائقاً وثياباً كثيرة، يحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه، ونفقة يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاء لأيامه(٥٥) قال ابن شداد : ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير إفرنجي وقد هابه، بحيث ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع، فقال له الترجمان: من أي شيء تخاف؟ فأجرى الله على لسانه أن قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه، أيقنت أني ما أرى إلا الخير، فرق له، ومَّن عليه، وأطلقه (٥٦) . ولقد كنت راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الإفرنج وقد وصل بعض اليَزكيَّة (٥٧) ، ومعه امرأة شديدة التحرُّق، كثيرة

---

[٥٥] سيرة الناصر صلاح الدين ص ٩١.
[٥٦] المصدر نفسه ص ٩١.
[٥٧] طلائع الجيش.

البُكاء، متواترة الدَّقّ على صدرها، فقال اليَزَكي: إنّ هذه خرجت من عند الفرنج، وسألت الحضور بين يديك، وقد أتينا بها فأمر الترجمان أن يسألها عن قضّيتها، فقالت: إن اللُّصوص المسلمين دخلوا البارحة إلى خيمتي، وسقوا ابنتي، وبتُّ البارحة أستغيث إلى بكرة النهار، فقيل لي: الملك هو رحيم. ونحن نخُرجك إليه تطلبين ابنتك، فأخرجوني، وما أعرف ابنتي إلا منك فّرقَّ لها، ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب إلى سُوق العسكر، يسأن عن الصغيرة : من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه، فما كان إلا أن وقع نظرها عليهما، فخَّرت إلى الأرض تمِّرر وجهها في التراب، والناس يبكون على ما نالها، وترفع طرفها إلى السماء، ولا نعلم ما تقول : فُسلّمت ابنتها إليها وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم (٥٨) .

ولقد دخل عليه البْرَنْس أرناط – صاحب الكَركَ مع ملك الإفرنج بالسّاحل لما أسرهما في وقعة حطين في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، والواقعة مشهوره تجيء مشروحة في موضعها – إن شاء الله تعالى – وكان قد أمر بإحضارها، وكان هذا أرناط اللعين كافراً لعيناً جبّاراً شديداً، وكان قد اجتازت به قافلة من مصر، حين كان بين المسلمين وبينهم هدنة، فغدرها، وأخذها، ونكَّل بهم، وعذَّبهم، وأسكنهم المطامير والحُبوس الحرجة، وذكرّروه بحديث الهدنة، فقال: قولوا لمحمّدكم يخلّصكم، فلما بلغه – رحمه الله – ذلك عنه، نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه، فلما مكّن

[٥٨] سيرة الناصر صلاح الدين ص ٩٢.

الله منه في ذلك اليوم، قوي عزمه على قتله – وفاءً بنذره – فأحضره مع الملك، فشكا الملك العطش، فأحضر له قدحاً من شراب، فشرب منه، ثم ناوله أرْنَاط، فقال السُّلطان للترجمان : قل للملك : أنت الذي سقيته، وأما أنا فما أسقيه من شرابي، وأطعمه من طعامي. فقال رحمه الله – أن من أكل من طعامي فالمروءة تقتضي أن لا أوذيه. ثم ضرب عنقه بيده وفاءً بنذره وأخذ عكّا، وأخرج الأسرى كلهم مـــن ضيق الأسر، وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير، وأعطى كلاً منهم نفقة توصله إلى بلده وأهله (٥٩) ، ويروى القاضي ابن شداد هذه القصة التي تنبئ عن تسامحه الكبير ومروءته النادرة يقول ابن شداد: لما مرض الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد – أكبر خصوم صلاح الدين – بعث إليه صلاح الدين ورقَّه عنه بأن أرسل إليه الفواكه والثلج، وكان الصليبيون يعجبون من هذا التسامح الكريم الصادر عن أعدائهم من المسلمين نحوهم (٦٠) . لقد كان صلاح الدين حسن العشرة، لطيف الأخلاق، طيِّب الفكاهة، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم عارفاً بسيرهم وأحوالهم، حافظاً لأنساب خيلهم، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث كان يستفيد محاضره منه مالا يسمع من غيره، وكان حسن الخُلق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه، وتقلّبات أحواله وكان طاهر المجلس، لا يُذكر بين يديه أحد إلا بالخير وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا الخير، طاهر اللسان، قال ابن شداد : فما رأيته ولع بشتم قط؛ وطاهر القلم، فما كتب بقلمه إيذاء مسلم

[٥٩] المصدر نفسه ٩٣.
[٦٠] صلاح الدين الأيوبي، علوان ص ١٥١.

قط (٦١) وكان حسن العهد والوفاء، فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفيه، وجبر قلبه، وأعطاه خبز مخلفه وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمّه إليه، وإلا أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته، وسلّمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته، وكان ما يـــرى شيخاً إلا ويـــرقّ له ويعطيه ويُحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله (٦٢).

[٦١] سيرة الناصر صلاح الدين ص ٩٣.
[٦٢] المصدر نفسه ص ٩٣، ٩٤.

بدايات صلاح الدين الأيوبى العسكرية

كانت الدولة العباسية قد تجزأت إلى عدّة دويلات بحلول الوقت الذي ظهر فيه صلاح الدين، في أواسط القرن الثاني عشر، فكان الفاطميون يحكمون مصر ويدعون لخلفائهم على منابر المساجد ولا يعترفون بخلافة بغداد،

وكان الصليبيون يحتلون الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط من آسيا الصغرى إلى شبه جزيرة سيناء، والأتابكة يسيطرون على شمال العراق وسوريا الداخلية

لمع نجم صلاح الدين في سماء المعارك والقيادة العسكرية عندما أقبل الوزير الفاطمي شاور بن مجير السعدي إلى الشام فارًا من مصر، وهربًا من الوزير ضرغام بن عامر بن سوار المنذري اللخمي الملقب فارس المسلمين لما استولى على الدولة المصرية وقهره وأخذ مكانه في الوزارة وقتل ولده الأكبر طيء بن شاور، مستغيثًا بالملك نور الدين زنكي في دمشق وذلك في شهر رمضان سنة ٥٥٨ هـ ودخل دمشق في ٢٣ من ذي القعدة من السنة نفسها، فوجه نور الدين معه أسد الدين شيركوه بن شاذي في جماعة من عسكره

كان صلاح الدين، ابن الستة والعشرين ربيعًا، في جملتهم في خدمة عمه وخدمة جيش الشام وهو كاره للسفر معهم، وكان لنور الدين في إرسال هذا الجيش هدفان؛ قضاء حق شاور لكونه قصده، وأنه أراد استعلام أحوال مصر فإنه كان يبلغه أنها ضعيفة من جهة الجند وأحوالها في غاية

الاختلال فقصد الكشف عن حقيقة ذلك. وكان نور الدين كثير الاعتماد على شيركوه لشجاعته ومعرفته وأمانته فانتدبه لذلك، وجعل أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين مقدم عسكره وشاور معهم فخرجوا من دمشق على رأس الجيش في جمادى الأولى سنة ٥٥٩ هـ ودخلوا مصر وسيطروا عليها واستولوا على الأمر في رجب من السنة نفسها،ومن المعروف أن صلاح الدين لم يلعب دورًا كبيرًا خلال هذه الحملة الأولى، بل اقتصر دوره على مهمات ثانوية.

صلاح الدين الأيوبى وفترة شبابه

ولمّا وصل أسد الدين وشاور إلى الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا الوزير ضرغام وحصل لشاور مقصوده وعاد إلى منصبه وتمهدت قواعده واستمرت أموره، غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد بالفرنجة عليه فحاصروه في بلبيس ثلاثة أشهر،وكان أسد الدين قد شاهد البلاد وعرف أحوالها، ولكن تحت ضغط من هجمات مملكة القدس الصليبية والحملات المتتالية على مصر بالإضافة إلى قلة عدد الجنود الشامية أجبر على الانسحاب من البلاد.

وبلغ إلى علم نور الدين في دمشق وكذلك أسد الدين مكاتبة الوزير شاور للفرنجة وما تقرر بينهم فخافا على مصر أن يملكوها ويملكوا بطريقها جميع البلاد هناك فتجهز أسد الدين في قيادة الجيش وخرج من دمشق وأنفذ معه نور الدين العساكر وصلاح الدين في خدمة عمه أسد الدين، وكان وصول أسد الدين إلى البلاد مقارنًا لوصول الفرنجة إليها،

فاتفقوا مع الفاطميين عليه، فاشتبكوا في أوّل معركة كبيرة في صحراء الجيزة، وفي تلك المعركة لعب صلاح الدين دورًا كبيرًا، حيث كان جيش المصريين والفرنجة يفوق جيش الشام عددًا، فرأى شيركوه أن يجعل صلاح الدين على القلب لاعتقاده بأن الفرنجة سيحملون على القلب ظنًا منهم أن شيركوه سيكون في القلب، وتولّى شيركوه قيادة الميمنة مع شجعان من جيشه، وسُلّمت قيادة الميسرة إلى جمع من القادة الكرد. عند بداية المعركة، حمل الصليبيون على القلب، الذين تقهقروا بانتظام أمام هذا الهجوم، ليطوّقهم بعد ذلك شيركوه وجنوده في صورة من صور تكتيك الكماشة.

يرى بعض المؤرخين الغربيين أن وعورة الأرض وكثافة الرمال وثقل الجياد الأوروبية والجنود الفرنجة المدرعين، أسهمت في جعل الآية تنقلب عليهم، فهزمهم جيش الشام، واستطاع صلاح الدين أسر أحد قادة الجيش الصليبي عندما هاجم جناحه، وهو صاحب قيسارية.

صلاح الدين الأيوبى ومعركة الإسكندرية.

بعد هذا الانتصار، توجه أسد الدين إلى مدينة الإسكندرية المعروفة بكرهها لشاور، وفتحت له أبوابها.

سرعان ما أعاد عموري الأول ملك بيت المقدس، وشاور ترتيب الجيش، وعلى الرغم من الخسائهر الكبيرة التي لحقت بهما فكان لا يزال جيشهما أكثر عددًا من جيش أسد الدين، وضربوا حصارًا قاسيًا على الإسكندرية. بدأت ملامح المجاعة تلوح في الأفق فقرر أسد الدين التسلل مع حامية إلى خارج الإسكندرية واستخلف صلاح الدين عليها،متوجهًا إلى مصر العليا أملاً بأن تلحق به جيوش عموري إلا أن شاور أشار بأهمية الإسكندرية، ليستمر الحصار عليها.

ترى المصادر الصليبية أن أسد الدين تسلل من الإسكندرية لما ساءت الأمور فيها، وأنه أرسل في التفاوض على أن يخرج كلا الجيشين من مصر، وعلى ألا يعاقب أهالي الإسكندرية للدعم الذي قدموه. كان من أهم أسباب موافقة عموري على هذه الصفقة إغارة نور الدين زنكي على إمارة طرابلس، مما أدى إلى خوف عموري الأول على أراضيه في الشام. في حين ترى المصادر العربية أن أسد الدين افترق عن صلاح الدين مباشرة بعد الدخول إلى الإسكندرية، وراح يغير على صعيد مصر. حين اشتد الحصار على الإسكندرية تحرك نحوها، فلقفه الصليبيون في الصلح ووافق على ذلك على أن يخرج جيشا الفرنجة والشام من مصر. ليخرج جيش

الشام من مصر في ٢٩ شوال سنة ٥٦٢ هـ، الموافق فيه ١٨ أغسطس سنة١١٦٧م.

عاد أسد الدين من دمشق إلى مصر مرة ثالثة، وكان سبب ذلك أن الإفرنج جمعوا فارسهم وراجلهم وخرجوا يريدون مصر نظرًا لتخلف شاور عن دفع الإتاوة إلى الحامية الصليبية الموجودة في مصر، إضافة إلى وجود شائعات تفيد بأن الكامل بن شاور تقدم للزواج من أخت صلاح الدين. فلما بلغ ذلك أسد الدين ونور الدين في الشام لم يسعهما الصبر فسارعا إلى مصر، أما نور الدين فبالمال والجيش ولم يمكنه المسير بنفسه للتصدي لأي محاولة من قبل الإفرنج، وأما أسد الدين فبنفسه وماله وإخوته وأهله ورجاله، وسار الجيش.

وكان شاور لما أحس بخروج الإفرنج إلى مصر، سيّر إلى أسد الدين في دمشق يستصرخه ويستنجده فخرج مسرعًا وكان وصوله إلى مصر في شهر ربيع الأول سنة ٥٦٤ هـ، ولما علم الملك عموري الأول بوصول أسد الدين على رأس الجيش من دمشق إلى مصر قرر مباغتته عند السويس، لكن أسد الدين أدرك ذلك فاتجه نحو الجنوب متجاوزًا الصليبيين.

فما كان من عموري إلا الجلاء عن أرض مصر في ٢ يناير سنة ١١٦٩م، ليدخل أسد الدين القاهرة في ٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ، الموافق فيه ٨ يناير سنة ١١٦٩م، وأقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الأحيان وكان وعدهم بمال في مقابل ما خسروه من النفقة فلم يوصل إليهم شيئا، وعلم أسد الدين أن شاور يلعب به تارة وبالإفرنج

أخرى، وتحقق أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور فأجمع رأيه على القبض عليه إذا خرج إليه، وفي ١٧ ربيع الآخر، الموافق فيه ١٨ يناير، ألقي القبض على شاور وأصدر الخليفة الفاطمي، العاضد لدين الله، أمرًا بقتله وعيّن أسد الدين كوزير.

تأسيس الدولة المصرية

تولّي الوزارة وإسقاط الدولة الفاطمية

كانت مصر قبل قدوم صلاح الدين مقر الدولة الفاطمية، ولم يكن للخليفة الفاطمي بحلول ذلك الوقت سوى الدعاء على المنابر، وكانت الأمور كلها بيد الوزراء، وكان وزير الدولة هو صاحب الأمر والنهي، لذا أصبحأسد الدين شيركوه هو الرجل الأول في البلاد، ودام على هذا الحال وصلاح الدين يُباشر الأمور مقررًا لها لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه وسياسته طيلة شهرين من الزمن، عندما توفي أسد الدين، أسند الخليفة الفاطمي الوزارة لصلاح الدين.

يذكر المؤرخون، وفي مقدمتهم عماد الدين الأصفهاني، أنه بعد وفاة شيركوه وانقضاء مدة الحداد، طالب الزنكيون، أمراء دمشق، طالبوا الخليفة الفاطمى بل ضغطوا عليه حتى يجعل صلاح الدين وزيرًا له، وقد قبل الخليفة ذلك على الرغم من المنافسة الحادة التي كانت الدويلات الإسلامية تشهدها في تلك الفترة من الزمن، للسيطرة على الأراضي العربية، لشدة ضعف الدولة الفاطمية وقوّة الزنكيين وشعبيتهم، وشعبية صلاح الدين نفسه بين الناس وأمراء الشام، بعد ما أظهره من حسن القيادة والتدبير في المعارك.

على الرغم من هذا التأييد، لم يمرّ تولّي صلاح الدين وزارة مصر بسلام، فقد تعرّض بعد بضعة أشهر من توليه لمحاولة اغتيال من قبل بعض الجنود والأمراء الفاطميين، وتبيّن أن المحرّض الرئيسي على هذا كان

مؤتمن الخليفة الفاطمي وكان خصيًا بقصر العاضد لدين الله، وكان هذا الخصي يتطلع إلى الحكم فيه والتقدم على من يحويه فقُبض عليه وأُعدم، فحاك أرباب المصالح مؤامرة أخرى، حيث ملأوا صدور ٥٠,٠٠٠ جندي من فوج الزنوج بالحقد والكره، وثاروا حميّةً على الوزير الجديد في القاهرة، لكنه استطاع أن يقمعهم ويكسر شوكتهم، وكانت تلك آخر انتفاضة ضد صلاح الدين تقع في المدينة.

بعد سقوط مصر في أيدي الزنكيين، بعث الملك عموري رسله لإرسال حملة صليبية جديدة شارحًا خطورة الأمر والتغير في ميزان القوى في المنطقة، فاستجاب البابا إسكندر الثالث وبعث رسائل إلى ملوك أوروبا، لكنها لم تجد أذنًا صاغية.

في حين نجح الرسول المرسل إلى القسطنطينية بسبب إدراك الإمبراطور عمانوئيل كومنينوس اختلال توازن القوى في المنطقة. فعرض تعاون الأسطول الإمبراطوري مع حملة عموري الأول، الذي وجد الفرصة مناسبة بسبب انشغال الملك نور الدين زنكي في مشاكله الداخلية، إضافة إلى وفاة أسد الدين شيركوه وتعيين صلاح الدين خلفًا له والذي كان الملك عموري يراه شخصًا غير محنك.

حصار دمياط من قبل الأسطول الصليبي والبيزنطي :

استعد صلاح الدين بشكل جيد، فقد استطاع التخلص من حرس قصر الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله واستبداله بحرس موالين له. وكان ذلك لتأخر الحملة الصليبية ثلاث أشهر منذ انطلاقها في ١٣ شوال سنة ٥٦٤

هـ، الموافق فيه ١٠ يوليو سنة ١١٦٩م، بسبب عدم حماسة الأمراء والبارونات الصليبيين للمعركة بعد المعارك الأخيرة التي هُزموا فيها، استهل الصليبيون حملتهم بحصار مدينة دمياط في ١ صفر سنة ٥٦٥ هـ، الموافق فيه ٢٥ أكتوبر سنة ١١٦٩م، فأرسل صلاح الدين قواته بقيادة شهاب الدين محمود وابن أخيه تقي الدين عمر، وأرسل إلى نور الدين زنكي يشكو ما هم فيه من المخافة ويقول: «إن تأخرت عن دمياط ملكها الإفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا من طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج أمامي؛ فلا يبقى لنا باقية»، وقال نور الدين في ذلك: «إني لأستحي من الله أن أبتسم والمسلمون محاصرون بالفرنج».

فسار نور الدين إلى الإمارات الصليبية في بلاد الشام وقام بشن الغارات على حصون الصليبيين ليخفف الضغط عن مصر وقامت حامية دمياط بدور أساسي في الدفاع عن المدينة وألقت سلسلة ضخمة عبر النهر، منعت وصول سفن الروم إليها، وهطلت أمطار غزيرة حولت المعسكر الصليبي إلى مستنقع فتهيؤوا للعودة وغادروا دمياط بعد حصار دام خمسين يومًا، بعد أن أحرقوا جميع أدوات الحصار. وعندما أبحر الأسطول البيزنطي، هبت عاصفة عنيفة، لم يتمكن البحارة - الذين كادوا أن يهلكوا جوعًا - من السيطرة على سفنهم فغرق معظمهم.

لاحق صلاح الدين وجيشه فلول الجيش الصليبي المنسحب شمالاً حتى اشتبك معهم في مدينة دير البلح سنة ١١٧٠م، فخرج الملك عموري الأول وحاميته من فرسان الهيكل من مدينة غزة لقتال صلاح الدين، لكن

الأخير استطاع تفادي الجيش الصليبي وحوّل مسيرته إلى غزة نفسها حيث دمّر البلدة التي بناها الصليبيون خارج أسوار المدينة.

تفيد بعض الوثائق أنه خلال هذه الفترة، قام صلاح الدين بفتح قلعة إيلات التي بناها الصليبيون على جزيرة صغيرة في خليج العقبة في ١٠ ربيع الآخر ٥٦٦ هـ، على الرغم من أنها لم تمثل تهديدًا للبحرية الإسلامية، إلا أن فرسانها كانوا يتعرضون في بعض الأحيان للسفن والقوارب التجارية الصغيرة.

بعد هذا الانتصار، ثبّت الزنكيون أقدامهم في مصر، وأصبح من الواضح أن الدولة الفاطمية تلفظ أنفاسها الأخيرة، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين طالبًا إياه بإيقاف الدعاء إلى الخليفة الفاطمي والدعاء إلى الخليفة العباسي في مساجد مصر. لم يرغب صلاح الدين الامتثال لهذا الأمر خوفًا من النفوذ الشيعي في مصر، وأخذ يراوغ في تأخير الأمر، إلا أن نور الدين هدد صلاح الدين بالحضور شخصيًا إلى القاهرة. فاتخذ صلاح الدين الإجراءات الشرطية اللازمة، لكن لم يتجرأ أحد على القيام بذلك، إلى أن جاء شيخ سني من الموصل زائرا وقام في المسجد الأزهر وخطب للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله في أول جمعة من سنة ٥٦٧ هـ، الموافق في شهر سبتمبر من سنة ١١٧١م، لتحذو القاهرة كلها حذوه، في الوقت الذي كان فيه العاضد لدين الله على فراش الموت مريضًا،ولم يلبث العاضد طويلاً حتى فارق الحياة، فأصبح صلاح الدين الحاكم الفعلي في مصر، ليس لأحدٍ فيها كلمة سواه، ونقل أسرته ووالده نجم الدين إليها ليكونوا له أعوانًا مخلصين، وبهذا زالت الدولة الفاطمية تمامًا بعد أن استمرت ٢٦٢ سنة.

التصدي للحملة الصليبية البيزنطية المشتركة :

أدرك الإفرنج خطورة موقفهم بعد فتح مصر، وتولى صلاح الدين وزارتها، فاتفق ملك القدس "عمــوري" مــع إمبراطور بيزنطة على غزو مصر بأساطيلهم وحاصروا دمياط تنفيذاً لذلك التحــالف (٦٣) ، وأرسل صلاح الدين قواته بقيادة خاله شهاب الدين محمود وابن أخيه تقي الدين عمر، وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخاوف ويقول: إن تأخرت عن دمياط ملكها الإفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا من طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج امامي، فلا يبقى لنا باقية (٦٤) . وقد قام نور الدين بالدور المتوقع منه واتخذ القرار السليم فسير إلى صلاح الدين العساكر ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية وقام بشن الغارات على حصون الفرنجة وقلاعهم ووصلت سراياه إلى المدى الذي لم تصله من قبل في بلادهم ليخفف الضغط عن مصر وفي ذلك تعزيز ودعم لصلاح الدين حتى يتمكن من إحكام السيطرة على مصر، ليتفرغ بعذ ذلك للمســاعدة في تحقيق الهدف الاستراتيجي الكبير المتمثل في تحرير سواحل بلاد الشام من الاحتلال (٦٥) الفرنجي. وقد قامت حامية دمياط بدور بطولي في الدفاع عن المدينة وألقت سلسلة ضخمة عبر النهر، منعت وصول السفن اليونانية إليها وأنزل المسلمون المدافعون الخسائر بالأسطول البيزنطي اليوناني، وهطلت أمطار غزيرة حولت المعسكر

---

[٦٣] الجهاد والتجديد ص ٢٠٧.
[٦٤] المصدر نفسه ص ٢٠٧.
[٦٥] دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٦٠.

الصليبي إلى مستنقع فتهيأوا للعودة وغادروا دمياط بعد حصار دام خمسين يوماً، وعندما أبحر الأسطول البيزنطي، هبت عاصفة عنيفة، لم يستطيع البحارة الذين كادوا أن يهلكوا جوعاً من السيطرة على سفنهم فعرف معظمها، ونصر الله المســـلمين، نصـــراً مؤزراً (٦٦).

١- أسباب فشل الحملة على دمياط:

يعود فشل الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط إلى عوامل تتعلق بالمسلمين والصليبيين والبيزنطيين وبالجانبين الصليبي والبيزنطي معاً.

أ- فيما يتعلق بالجانب الإسلامي يمكن رصد العوامل التالية:

- **صمود سكان دمياط في وجه المعتدين.**
- **سرعة إمداد صلاح الدين المدينة بالمؤن والسلاح، مما رفع معنويات سكانها المحاصرين.**
- **التعاون الصادق بين القوات الإسلامية في كل من بلاد الشام ومصر بهدف التصدي للمعتدين.**

القدرة القتالية للقوات الإسلامية، وحسن تخطيطها وتنظيمها الدقيق (٦٧).

[٦٦] الجهاد والتجديد ص ٢٠٨.

[٦٧] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٧٩.

موقف نور الدين محمود الداعم، فقد أرسل بعوث كثيرة يتبع بعضها بعضها، ثم إن نور الدين اغتنم غيبة الفرنج عن بلادهم فصمد إليهم في جيوش كثيرة فجاس خلال ديارهم، وغنم من أموالهم، وقتل من رجالهم، وسبى من نسائهم وأطفالهم شيئاً كثيرا، وعندما بلغ الفرنج بدمياط ما فعله نور الدين اضطروا لترك دمياط (٦٨) .

استغلال المسلمين الجيد للفرص التي أتيحت لهم فقد استغلوا فرصة معاناة البيزنطيين من الجوع، فشنوا هجوماً عليهم جاء فّعالاً، كما استغلوا هبوب الرياح الجنوبية لإشعال النار في الأسطول البيزنطي بواسطة حّراقة (٦٩) والأهم من هذا كله توفيق الله وحفظه ومعيته وأنزال نصره على عباده المجاهدين.

ب- فيما يتعلق بالجانب الصليبي:

لقد أخَّر الملك عموري الأول الهجوم على المدينة مدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطي، مما أعطى فرصة طيبة للمسلمين لتحصين المدينة وإمدادها بالرجال والعتاد (٧٠) .

إحجام القوات الصليبية عن إمداد القوات البيزنطية بالمؤن عندما تعَّرضت لهجوم المسلمين، حيث وقفت موقف المتفرج (٧١) .

---

[٦٨] البداية والنهاية (٤٤٠/١٦).
[٦٩] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٨٠ معالم تاريخ الأمبراطورية البيزنطية محمود سعيد عمران ٣٣٠.
[٧٠] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٨٠.
[٧١] المصدر نفسه ص ٣٨٠.

ج- فيما يتعلق بالجانب البيزنطي فيمكن تدوين العوامل التالية:

- عدم استخدام القائد كونتوستيفانوس الأسطول البيزنطي استخداماً عسكرياً وبدا كأنه قائد بري وليس قائداً بحرياً.
- اقتصر دور الأسطول البيزنطي على نقل القوات حتى ساحل دمياط.
- افتقر القائد البيزنطي إلى النظرة العسكرية السليمة عندما ترك السفن البيزنطية متلاصقة في النيل مما سَّهل مهمة القوات الإسلامية في إشعال النار في عدد منها.
- تراخي القيادة البيزنطية في تطبيق القواعد العسكرية التي تكفل أمن سفنها حين تركت البحارة يبيتون خارج سفنهم أيام العمليات العسكرية.
- انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية.

س – هناك أسباب مشتركة تتعلق بالجانبين الصليبي والبيزنطي، منها:

سوء اختيار توقيت خروج الحملة، وتنفيذ الحصار الذي جرى في فصل الشتاء، حيث تعّرضت القوات المتحالفة للسيول التي أغرقت معسكراتها وللعواصف التي كانت تبعد قطع الأسطول عن الشاطئ.

سوء اختيار المكان الذي عسكرت فيه القوات المتحالفة، وهي المنطقة التي تمتد بطول الساحل، والبالغة حوالي الميل الواحد فلم تستوعب أفراد الحملة البالغ عددهم خمسين ألفاً حيث حشروا في هذا المكان الضيق، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين للدخول في معركة ناجحة .

أدّى سوء اختيار المكان أن أضحت القوات المتحالفة هدفاً سهلاً لمرمى المسلمين وهجماتهم.

عدم وجود قيادة موحدة، وافتقرت القيادتان الصليبية والبيزنطية إلى التنسيق فيما بينهما، مما تسَّبب في فشل عمليات الهجوم على المدينة، وتفشي الشائعات داخل معسكراتها، واتهام كل جانب الجانب الآخر بأنه السبب في فشل الحملة (٧٢).

نتائج الحملة على دمياط:

بعد فشل الحملة الصليبية – البيزنطية المشتركة على دمياط أصبحت هذه الحادثة نقطة تحول هامة في تاريخ الشرق الأدنى، لأنه لو نجح التحالف النصراني في تحقيق غايته لكان من الممكن أن يمنع اتحاد بلاد الشام ومصر، الذي يشكل خطراً مباشراً على أوضاع الصليبيين في الشام، ويعرقل جهود المسلمين في التصدي للصليبيين، وإخراجهم من المنطقة.

يُعُّد فشل الحملة النصرانية نقطة تحول هامة، أيضاً – في مستقبل صلاح الدين، الذي ظهر بمظهر المتمكّن في حماية مصر، وأقنع الدولة الفاطمية، المتداعية بأنه يستطيع حماية البلد من غارات المعتدين بالإضافة إلى حماية مركزه من دسائس المتآمرين، وبذلك حاز على إعجاب الكثير.

بات المسلمون يهِّددون، بشكل مباشر، الإمارات الصليبية بحيث شعر الصليبيون يوماً بعد يوم بازدياد تضييق المسلمين عليهم، وبعد أن كانوا يحصرون نشاطهم ضد خطر نور الدين محمود من ناحية الشمال، وأضحوا

[٧٢] المصدر نفسه ص ٣٨١.

يوزعون قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين محمود وصلاح الدين (٧٣) .

إذا كانت تولية صلاح الدين منصب الوزارة بداية النهاية للدولة الفاطمية فإن هزيمة النصارى أمام دمياط، شكّلت خطوة أخرى نحو القضاء على هذه الدولة حيث تطلع الخليفة العاضد إلى التحرر من نفوذ صلاح الدين، ولكن المصير الفاشل الذي آلت إليه، خيَّبت أمله، وأتاحت لصلاح الدين فرصة الانفراد بالسلطة في مصر، وتوجيه اهتمامه نحو إضعاف المذهب الشيعي الإسماعيلي وفقدت الدولة الفاطمية الأمل الأخير من التخلص في قبضته القوية وأضحى سيد مصر دون منازع (٧٤).

وصول نجم الدين أيوب مصر : طلب صلاح الدين من نور الدين أرسال والده إليه فوافق نور الدين على ذلك وطلب من نجم الدين أيوب أن يستعد للسفر إلى مصر وحّمله رسالة إلى صلاح الدين يأمره فيها بالتعجيل في إلغاء الخلافة الفاطمية وإعلان الخطبة للخليفة العباسي (٧٥). وخرج مع القافلة التي سافر فيها نجم الدين أيوب عدد كبير من التجار وأصحاب المصالح في مصر، فخشي نور الدين على القافلة من الفرنجة وسار بجيشه إلى الكرك، وحاصرها حتى أطمأن إلى اجتياز القافلة لمنطقة الخطر فتركها وعاد إلى دمشق (٧٦) ووصل والد صلاح الدين نجم الدين أيوب إلى القاهرة في الرابع والعشرين من رجب سنة خمس وستين وخمسمائة

[٧٣] تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٨١.
[٧٤] المصدر نفسه ص ٣٨٢.
[٧٥] دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١١٥.
[٧٦] دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١١٦.

وخرج العاضد – صاحب القصر لاستقباله وبالغ في احترامه والإقبال عليه واتفق لأيوب مع ولده صلاح الدين يوسف شبيه ما أتفق ليعقوب مع ابنه يوسف – عليهما السلام – حين قدم على ولده ووجده متملكاً للديار المصرية وقال: "ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين" (يوسف، آية : ٩٩). وذكر أنه لما خرج ولده الملك الناصر صلاح الدين والخليفة العاضد إلى لقائه واجتمعا به قرأ بعض المقرئين: " ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سُجَّداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل" (يوسف، آية: ١٠٠). ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته وفَّوض إليه الأمر كله، فأبى ذلك عليه أبوه وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له، فلا ينبغي أن تغير مواقع السعادة (٧٧) ، فحكَّمه في الخزائن بأسرها، وأنزله اللؤلؤة المطلة على خليج القاهرة (٧٨) وفي ما حدث لصلاح الدين من اجتمع بوالده وأهله

وحُكي أنه لم اجتمع صلاح الدين بوالده في دار الوزارة، وقعدا على طراحة واحدة، ذكر نجم الدين أن صلاح ولد ليلة إخراجه من قلعة تكريت قال: فتشاءمت له وتطيرت لما جرى علي وكان معي كاتب نصراني فقال: يا مولاي من يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيماً عظيم الصيت جليل المقدار. قال فعطفني كلامه عليه. فتعجبت الجماعة من هذا الاتفاق رحمة الله عليهم أجمعين (٧٩) وقد توفي نجم الدين أيوب في ٥٦٨هـ فقد ركب نجم الدين أيوب، فشبب به فرسه بالقاهرة عند باب النَّصر وسط المحجّة

[٧٧] مفرج الكروب (١٨٦/١).
[٧٨] المصدر نفسه (١٨٦/١).
[٧٩] المصدر نفسه (٣٠٤/١).

يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة، وحمل إلى منزله، وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة وكان كريماً رحيماً عطوفاً حليما وبابه مزدحم بالوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود (٨٠) وكان نجم الدين عظيماً في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السِّياسة، وكان لا يمُرّ أحدٌ من أهل العلم والدين إلا حمل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لا يسمع بأحد من أهل الدين في مدينة إلا أنفذ إليه (٨١) ، وكان صلاح الدين غائباً في بلاد الكَرَك والشوبك على الغزاة مواظباً، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت الدَّار السلطانية ثم نقلا بعد سنين إلى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصَّلاَّة والسلام وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل

---

[٨٠] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢٤٨/٢).
[٨١] المصدر نفسه (٢٥٢/٢).

صلاح الدين الأيوبى سلطان مصر

أخذ صلاح الدين يقوّي مركزه في مصر بعد زوال الدولة الفاطمية، ويسعى من أجل الاستقلال بها، فعمل على كسب محبة المصريين، وأسند مناصب الدولة إلى أنصاره وأقربائه،وعزل قضاة الشيعة واستبدلهم بقضاة شافعيين، وألغى مجالس الدعوة وأزال أصول المذهب الشيعي الإسماعيلي. ثم أبطل الأذان بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر،وأمر في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة ٥٦٥ هـ، الموافقة سنة ١١٦٩م، بأن يذكر في خطبة الجمعةالخلفاء الراشدون جميعًا: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، كما أسس مدرستين كبيرتين في الفسطاط هما المدرسة الناصرية، والمدرسة الكاملية حتى يُثبّت مذهب أهل السنة في البلاد، وكانت هاتان المدرستان تُلقنان علوم الشريعة وفق المذهبين المالكي والشافعي.

وتخوّف نور الدين زنكي من تزايد قوة تابعه صلاح الدين، وكانت العلاقة بينهما على فتور أصلاً منذ أن تولّى صلاح الدين الحكم في مصر. بدأ هذا التوتر في العلاقة يظهر عندما تأخر صلاح الدين في الخطبة للخليفة العباسي في بغداد، حتى هدده نور الدين بالمسير إليه، وظهر أيضًا عندما أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك وقال: "أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد".

وازداد الخلاف بينهما في سنة ٥٦٧ هـ، الموافقة سنة ١١٧٢م، حتى أصبح وحشةً، وذلك عندما اتفقا على حصار قلعتى الكرك ومدينة الشوبك في صحراء الأردن، ورجع صلاح الدين إلى مصر، قبل أن يلتقي بنور الدين، خوفًا من أن يعزله الأخير عن مصر، وأن تؤدي السيطرة على القلعتين إلى فتح الطريق أمام نور الدين إلى القاهرة، فانسحب صلاح الدين متذرعًا بالأوضاع الخطيرة في مصر، فعظم الأمر على نور الدين، حتى قرر المسير إلى مصر. لما علم صلاح الدين بذلك جمع مقربيه وشاورهم بالأمر فمنهم من نصح بمقاتلة نور الدين إلا أن والده وخاله منعوه من ذلك وطالبه والده بإرسال رسائل الاعتذار والتبرير لنور الدين،لكن نور الدين لم يقتنع بأي من تلك التبريرات، وعزم على تسيير حملة إلى مصر لخلع صلاح الدين في أقرب فرصة متاحة.

وفي صيف سنة ١١٧٢م، وردت أنباء تفيد بأن جيشًا من النوبيين ترافقه عناصر أرمنيّة قد بلغ حدود مصر ويُحضّر لحصار أسوان ، فطلب أميرها المعونة العسكرية من صلاح الدين، فأرسل إليه تعزيزات بقيادة شقيقه الأكبر، توران شاه، أرغمت النوبيين على الانسحاب.

عاد الجيش النوبي إلى مصر في سنة١١٧٣م، لكنه رُدّ على أعقابه في هذه المرة أيضًا، بل تعقبه الجيش الأيوبي حتى بلاد النوبة، وفتح بلدة قصر إبريم. وفي ذلك الوقت، كان نور الدين زنكي لم يتخذ أي خطوة عسكرية تجاه صلاح الدين بعد، لكنه طالبه بإعادة مبلغ ٢٠٠.٠٠٠ دينار كان نور الدين قد خصصه لتمويل حملة أسد الدين شيركوه التي نجحت في فتح البلاد والقضاء على النفوذ الصليبي والفاطمي فيها، فدفع صلاح الدين

٦٠,٠٠٠ دينار، وأرفقها بحمل من أفضل البضائع وبعض الجواهر، إضافةلحصان عربي أصيل، وفيل، واعتبر ذلك وفاءً للدين. استغل صلاح الدين فرصة مروره في الأراضي الشامية الصليبية لتوصيل الأموال والهدايا إلى دمشق، وأغار على بعض معاقل البدو في الصحراء ليحرم الصليبيين من فرصة الاستعانة بمقتفي الأثر أو أدلاء محليين يرشدونهم في حال قرروا مهاجمة مصر أو الأراضي الإسلامية المجاورة لهم، وجرى بينه وبين الإفرنج عدّة وقعات. وفي أثناء وجود صلاح الدين في الشام، أصيب والده نجم الدين أيوب بحادث أثناء امتطائه جواده، وتوفي في ٢٧ ذي الحجة ٥٦٨ هـ،بعد أيام قليلة قبل وصول صلاح الدين إلى مصر.

وفي سنة ١١٧٤م، الموافقة سنة ٥٦٩ هـ، بلغ صلاح الدين أن رجلاً باليمن استولى عليها، وملك حصونها يسمى عبد النبي بن مهدي، ولمّا تبيّن له قوّة جيشه وكثرة جنوده، سيّر صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه إلى اليمن، فقتل ابن مهدي، وأخذ البلاد منه، عندئذ أعلنت الحجاز انضمامها إلى مصر أيضًا.

أخذ نور الدين زنكي يجمع جيشًا ضخمًا في ربيع سنة ١١٧٤م، في محاولة لخلع صلاح الدين في مصر على ما يبدو، فأرسل رسلاً إلى الموصل وديار بكر والجزيرة الفراتية يحثون الرجال ويدعونهم للجهاد، غير أن تلك الحملة لم يُكتب لها أن تتم، إذ وقع نور الدين في أوائل شوال من سنة ٥٦٩ هـ، الموافقة في شهر مايو من سنة ١١٧٤م بالذبحة الصدرية وبقي على فراش المرض أحد عشر يوما ليتوفى في ١١ شوال سنة ٥٦٩ هـ، الموافق فيه ١٥ مايو سنة ١١٧٤م، وهو في

التاسعة والخمسين من عمره،وبوفاة نور الدين، استحال صلاح الدين سيد مصر الأوحد بشكل فعليّ، حيث استقل عن كل تبعية سياسية، ويُقال أنه أقسم آنذاك أن يُصبح سيفًا مسلولاً على أعدائه وأعداء الإسلام، وأصبح هو رأس أقوى سلالة حاكمة إسلامية في ذلك العهد، هي السلالة الأيوبية، لذا جرت عادة المؤرخين على تسمية المناطق التي خضعت لسلطانه وسلطان تابعيه بالدولة الأيوبية.

ضم الشام

كان نور الدين زنكي قد استخلف ولده الملك الصالح إسماعيل ذي الأحد عشر ربيعًا، أميرًا على دمشق، وبعد أن توفي نور الدين كان أمام صلاح الدين خياران أحلاهما مرّ: إما أن يُهاجم الممالك الصليبية من مصر ويتركها مفتوحة وعرضة لهجمات بحرية أوروبية وبيزنطية، أو أن ينتظر حتى يستنجد به الملك الصالح خصوصًا وأنه ما زال صبيًا لا يستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك، كذلك كان أمام صلاح الدين خيار حاسم، وهو أن يدخل دمشق ويسيطر عليها ويتولى شؤون البلاد بنفسه، ويُحضرها لقتال الصليبيين، غير أنه تردد في إتيان الخيار الأخير، بما أنه قد يُنظر إليه حينها أنه قد شق عصا الطاعة ونكر المعروف والاحترام المتبادل والثقة التي منحه إياها نور الدين زنكي عندما ولاّه قيادة الجيوش بعد وفاة أسد الدين شيركوه، وساعده على تمكين منصبه في مصر، وعندها قد لا ينظر إليه الجنود والناس أنه جدير بقيادة جيش المسلمين. لذا فضّل صلاح الدين انتظار دعوة من الملك الصالح، أو أن ينذره بنفسه من احتمال تصاعد الخطر الصليبي على دمشق.

واختلفت الأحوال بالشام، فنُقل الصالح إسماعيل إلى حلب وعُين سعد الدولة كمشتكين، أمير المدينة وكبير قدامى الجنود الزنكيين، وصيًا عليه حتى يبلغ أشدّه، وسرعان ما طمع كمشتكين بتوسيع رقعة نفوذه حتى تشمل باقي مدن الشام الداخلية والجزيرة الفراتية، وقرر فتح دمشق، فراسل أمير المدينة، شمس الدين بن المقدم سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود أمير الموصل وابن عم الملك الصالح إسماعيل، طالبًا منه التدخل للمساعدة، لكنه رفض، فكاتب شمس الدين بن المقدم صلاح الدين،فتجهز من مصر في جيش كثيف وترك بها من يحفظها وقصد دمشق مظهرًا أنه يتولى مصالح الملك الصالح. تكوّن جيش صلاح الدين من ٧٠٠ خيّال، عبر بهم الكرك وصولاً إلى بصرى، وفي أثناء الطريق انضمت إلى الجيش جموع من الكرد والعرب من أمراء وأحرار وبدو "سيماهم في وجوههم" كما ورد على لسان صلاح الدين. دخل الجيش دمشق في شهر ربيع الأول من عام ٥٧٠ هـ، الموافق فيه شهر نوفمبر من سنة ١١٧٤م، وأول ما دخل صلاح الدين كان دار أبيه وهي الدار المعروفة بالشريف العقيقي، واجتمع الناس إليه وفرحوا به وأنفق في ذلك اليوم مالاً جليلاً وأظهر السرور بالدمشقيين، وصعد القلعة وتسلمها من نائب القلعة الطواشي جمال الدين ريحان بعد ٤ أيام من وصوله.

فتوحات صلاح الدين الأيوبى

للشام الداخلية

استناب صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغتكين على دمشق قبل انطلاقه لضم باقي مدن الشام الداخلية التي استحالت مستقلة عن أي تبعيّة بحكم الأمر الواقع بعد وفاة نور الدين زنكي، فغنم حماة بسهولة، وعدل عن حصار مدينة حمص لمناعة أسوارها، ثم حوّل أنظاره نحو حلب وهاجمها بعد أن رفض أميرها "كمشتكين" الخضوع، وخرج الصالح إسماعيل إلى الناس وجعل يُخاطبهم ويحثهم ألاّ يسلموا المدينة إلى جيش غاز، وقد قال أحد المؤرخين الأيوبيين أن كلمات الصالح إسماعيل أمام الناس كانت "كأثر سحر ساحر" على السكان.

راسل كمشتكين شيخ الحشاشين المدعو رشيد الدين سنان، الذي كان على خلاف مع صلاح الدين ويمقته مقتًا شديدًا بعد أن أسقط الدولة الفاطمية، واتفق معه على أن يقتل صلاح الدين في قلب معسكره، فأرسل كتيبة مكونة من ثلاثة عشر حشاشاً استطاعت التغلغل في المعسكر والتوجه نحو خيمة صلاح الدين، إلا أن أمرهم انفضح قبل أن يشرعوا بالهجوم، فقُتل أحدهم على يد أحد القادة، وصُرع الباقون أثناء محاولتهم الهرب.

وفي أثناء ذلك، تحرّك ريموند الثالث صاحب طرابلس لمهاجمة حمص، وحشد جيشه بالقرب من النهر الكبير الجنوبي، على الحدود اللبنانية السورية الشمالية حاليًا، لكنه سرعان ما تراجع عن تحقيق هدفه، لمّا بلغه

أن صلاح الدين قد أرسل فرقة عسكرية كبيرة مجهزة بالعتاد اللازم لتنضم إلى حامية المدينة. وفي غضون هذا الوقت كان أعداء صلاح الدين في الشام والجزيرة الفراتية يطلقون حملات مضادة له ويهجونه كلّما سنحت الفرصة، فقالوا أنه نسي أصله، فهو ليس سوى خادم للملك العادل نور الدين زنكي، بل خادم ناكر للمعروف لا يؤتمن على شيء، خان سيده ومولاه ونفى ولده من بلاد أبيه إلى بلاد أخرى، وجعل يُحاصرها بعد ذلك ، فرد صلاح الدين على تلك الحملات الشرسة قائلاً أنه لم يحاصر حلب ولم يحضر إلى الشام منذ البداية إلا لحماية دار الإسلام والمسلمين من الجيوش الصليبية، وليستعيد ما سُلب من الأراضي المقدسة، وإن هذه مهمة لا يمكن أن يتولاها صبي لم يبلغ أشدّه بعد، ويسهل التلاعب به من قبل أصحاب النفوس الخبيثة. وليُطمئن الناس أكثر، سار صلاح الدين على رأس جيشه إلى حماة ليُقاتل فرقة صليبية أُرسلت لفتح المدينة، إلا أن الصليبيين انسحبوا قبل اللقاء بعد أن بلغهم حجم الجيش الأيوبي،فدخل صلاح الدين المدينة بسهولة، وتسلّم قلعتها في شهر مارس من سنة ١١٧٥م، بعد مقاومة عنيفة من حاميتها.

بعد هذه الأحداث، علم سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل أن صلاح الدين قد استفحل أمره وعظم شأنه، وخاف إن غفل عنه استحوذ على البلاد واستقرت قدمه في الملك وتعدى الأمر إليه، فأنفذ عسكرًا وافرًا وجيشًا عظيمًا وقدّم عليه أخاه عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود وساروا يريدون لقاءه ليردوه عن البلاد، فلما بلغ صلاح الدين ذلك فك الحصار عن حلب في مستهل رجب من

السنة عائدًا إلى حماة استعدادًا للقائهم. وعندما وصل عز الدين مسعود إلى حلب، انضم إلى جيشه عسكر ابن عمه الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، وخرجوا في جمع عظيم، فلما عرف صلاح الدين بمسيرهم سار حتى وافاهم على قرون حماة وراسلهم وراسلوه واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه، ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نالوا به غرضهم، والتقى الجمعان عند قرون حماة بقرب نهر العاصي، ووقعت بينهما معركة عظيمة هزم فيها الزنكيون على يد صلاح الدين، وأُسرت جماعة منهم، وذلك في التاسع عشر من شهر رمضان من سنة ٥٧٠ هـ، الموافقة في ٢٣ أبريل من سنة ١١٧٥ م، ثم سار صلاح الدين عقيب انتصاره ونزل على حلب مرة أخرى، فصالحه الزنكيون على أخذ معرة النعمان وكفر طاب وبارين.

أعلن صلاح الدين نفسه ملكًا على البلاد التي افتتحها بعد انتصاره على الزنكيين، وخطب له أئمة المساجد يوم الجمعة باسم "الملك الناصر"، وضُربت الدنانير الذهبية في القاهرة باسمه، وعضّد مُلكه بالزواج من أرملة نور الدين زنكي المدعوة عصمة الدين خاتون. وسرعان ما أصبحت سيادة صلاح الدين على البلاد سيادة مشروعة عندما أسند الخليفة العباسي فى بغداد إليه السلطة على مصر والمغرب الأدنى والنوبة والحجاز وتهامة وفلسطين وسوريا الوسطى، وخلع عليه لقب "سلطان مصر والشام".

استمرت الحرب بين الأيوبيين والزنكيين على الرغم من انتصار صلاح الدين في حماة، وحدثت الموقعة الأخيرة بينهما في صيف سنة ١١٧٦م.

كان صلاح الدين قد أحضر جيوشه من مصر استعدادًا للقاء الحاسم، وقام سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بتجنيد الرجال في المناطق التي ما زال يسيطر عليها، في ديار بكر وقرى وبلدات الجزيرة الفراتية.

عبر الأيوبيين نهر العاصر متجيهة شمالاً حتى وصلوا تل السلطان على بعد ٢٤ كيلومتر (١٥ ميلاً) من حلب، حيث قابلوا الجيش الزنكي، فاشتبك الجيشان في معركة ضارية، واستطاع الزنكيون دحر ميسرة الجيش الأيوبي، فاندفع صلاح الدين بنفسه تجاه حرّاس سيف الدين غازي وأعمل فيهم السيف، فتشجع الأيوبيون واندفعوا يمزقون صفوف الجيش الزنكي، فذُعر الزنكيون وأخذوا يتقهقرون تاركين في ساحة المعركة الكثير من القتلى،كاد سيف الدين أن يكون من ضمنهم. قُتل في المعركة العديد من ضبّاط الجيش الزنكي وأُسر بعضهم الآخر، وغنم الأيوبيون معسكر الزنكيين بما فيه من خيام وأمتعة وخيول وأسلحة، وعامل صلاح الدين الأسرى معاملة كريمة، فمنحهم هدايا وأطلق سراحهم، ثم وزّع غنائم المعركة كلها على جنوده، ولم يحتفظ بشيء لنفسه.

سار صلاح الدين بعد انتصاره ليعاود حصار مدينة حلب، وفي أثناء سيره فتح الجيش الأيوبي حصن بزاعة وحصن منبج، ومن ثم توجّه غربًا لإخضاع حصن أعزاز، وعندما ضرب الجيش الحصار على الحصن، اقتحم بعض الحشاشين المندسين المعسكر واستطاع أحدهم الوصول إلى خيمة صلاح الدين وضربهبسكين على رأسه، فحمته الخوذة غير أن السكين مرت على خده وجرحته جرحًا هينًا، واستطاع إمساك الحشاش، فصارعه الأخير أرضًا وحاول نحره، لكن صلاح الدين تمكن منه، وأعانه عليه وعلى رفاقه

الجنود الأيوبيون وأقاربه وقتلوهم جميعًا. كان لمحاولة الاغتيال هذه أثر كبير على صلاح الدين، فقد عزم على القضاء على كمشتكين أمير حلب، الذي سبق وتواطأ مع الحشاشين لقتل صلاح الدين، وأصبح شديد الحذر لا يُقابل إلا من يعرفه. يقول أبو شامة المقدسي في كتابه الروضتين في أخبار الدولتين:

" لمّا فتح السلطان حصن بزاعة ومنبج أيقن من هم تحت سلطتهم بخروج ما في أيديهم من المعاقل، والقلاع ونصبوا الحبائل للسلطان. فكاتبوا سنانًا صاحب الحشيشية مرة ثانية، ورغبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على البتاع فأرسل، لعنه الله، جماعة من أصحابه فجاءوا بزي الأجناد، ودخلوا بين المقاتلة وباشروا الحرب وأبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلهم يجدون فرصة ينتهزونها. فبينما السلطان يومًا جالس في خيمة، والحرب قائمة والسلطان مشغول بالنظر إلى القتال، إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه، وكان محترزًا خائفًا من الحشيشية، لا يترع الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد عن رأسه؛ فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئا لمكان صفائح الحديد وأحس الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان فسبح يده بالسكينة إلى خد السلطان فجرحه وجرى الدم على وجهه؛ فتتعتع السلطان بذلك.

ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه، ووضعه على الأرض وركبه لينحره؛ وكان من حول السلطان قد أدركهم دهشة أخذت عقولهم. وحضر في ذلك الوقت سيف الدين يازكوج، وقيل إنه كان حاضرًا،

فاخترط سيف وضرب الحشيشي فقتله. وجاء آخر من الحشيشية أيضا يقصد السلطان، فاعترضه الأمير داود بن منكلان الكردي وضربه بالسيف، وسبق الحشيشي إلى ابن منكلان فجرحه في جبهته، وقتله ابن منكلان، ومات ابن منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام. وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس فهجم على الباطني، ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من ضربه، فصاح علي: "اقتلوه واقتلوني معه"، فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه فطعن بطن الباطني بسيفه، وما زال يخضخضه فيه حتى سقط ميتًا ونجا ابن أبي الفوارس. وخرج آخر من الحشيشية منهزمًا، فلقيه الأثير شهاب الدين محمود، خال السلطان فتنكب الباطني عن طريق شهاب الدين فقصده أصحابه وقطعوه بالسيوف.

وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سرادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز، وضرب حول سرادقه مثال الخركاه، ونصب له في وسط سرادقه برجًا من الخشب كان يجلس فيه وينام، ولا يدخل عليه إلا من يعرفه، وبطلت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس على السلطان. واضطرب العسكر وخاف الناس بعضهم من بعض، فألجأت إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر" .

بعد أن تمّ النصر وافتتح حصن أعزاز في ذي الحجة من سنة ٥٧١ هـ، حوّل صلاح الدين أنظاره ناحية حلب وضرب الحصار عليها كي يقتصّ من الأمير كمشتكين، فقاومته الحامية مقاومة شديدة مرة أخرى، ففشل في اقتحام المدينة، غير أنه تمكن من فرض هدنة على كمشتكين

والملك الصالح إسماعيل وأبرم حلفًا معهما،وجاء في نص الهدنة أن يحتفظ الزنكيون بمدينة حلب مقابل اعترافهم بسلطان صلاح الدين على كامل الأراضي التي أخضعها، وسرعان ما اعترف أمراء ماردين وجوارها بسيادة صلاح الدين وبملكه على الشام. وعندما انتهت الهدنة أرسل الملك الصالح شقيقته الصغرى الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين مطالبة إياه بإعادة حصن أعزاز إلى الزنكيين، فاستجاب لطلبها ورافقها بنفسه حتى بوابة حلب محملة بهدايا كثيرة.

الحملة على الحشاشين

بعد أن تحالف صلاح الدين مع الزنكيين وأبرم معاهدة سلام مع مملكة بيت المقدس، لم يبق له من خطر يهدد دولته إلا طائفة الحشاشين بقيادة شيخ الجبل رشيد الدين سنان بن سليمان بن محمود، كانت هذه الطائفة تتبع طريقة الاغتيال المنظم للتخلص من أعدائها ومنافسيها. وكان الحشاشون يمتنعون في سلسلة من القلاعوالحصون في عدد من المواقع المشرفة الشاهقة في جبال النصيرية، ولمّا عزم صلاح الدين على إبادة طائفتهم وكسر شوكتهم، أرسل بعض الفرق العسكرية إلى جبالهم، وأعاد ما تبقى من جنود إلى مصر، وتولّى صلاح الدين قيادة الجيش بنفسه، وضرب الحصار على جميع قلاع الحشاشين خلال شهر أغسطس من عام ١١٧٦م، لكنه لم يتمكن من فتح أي منها، ففك الحصار وانسحب بجيشه مدمرًا كل المعاقل غير الحصينة التابعة لتلك الطائفة أثناء سيره.

بينما ذكر ابن كثير وابن الأثير أن صلاح الدين حاصر حصنهم مصياف وقتل منهم وسبى ثم شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن يكش، فقبل شفاعته فصالح الحشاشين، ثم كرّ راجعًا إلى دمشق.

غير أن بعض المخطوطات العائدة لرشيد الدين سنان نصّت على أن صلاح الدين انسحب خوفاً على حياته وأنه كان ينثر الرماد وغبار الطبشور حول خيمته ليلاً عندما حاصر قلعة مصياف، ليعرف ما إذا كان الحشاشون يأتون ليلاً بالقرب منه، وجعل كل حارس من حرّاسه يحمل سراجًا مضيئًا.

أما بالنسبة لرواية صلاح الدين نفسه، فقد قال فيها أن حرّاسه لاحظوا لمعان معدن على إحدى تلال مصياف ذات ليلة، ومن ثم اختفى بين خيم الجنود، وأفاد صلاح الدين أنه استيقظ من نومه ليرى شخصًا يخرج من الخيمة، وكانت المصابيح فيها قد بُعثرت وبقرب سريره عثر على كعك مرقق، وهي العلامة المميزة للحشاشين، وفي أعلى الخيمة وجد رسالة معلقة بخنجر مسموم كُتب فيها تهديد له إن لم يغادر الجبال فسوف يُقتل. عندئذ صاح صلاح الدين أن سنانًا كان في خيمته وغادرها، وقد جعلته هذه التجربة يُدرك عجزه قتال الحشاشين وإفنائهم بسرعة، فطلب من جنوده أن يراسلوهم كي يُبرم حلفًا معهم، فيكون بهذا قد حقق انتصارًا آخر، ألا وهو حرمان الصليبيين من حليف مهم.

العودة إلي مصر

انسحب صلاح الدين من جبال النصيرية بعد أن لم يتمكن من فتح قلاعها عائدًا إلى دمشق، ثم سرّح جنوده الشوام وجعلهم يعودون إلى منازلهم للراحة والاستعداد للحروب القادمة، ثم رحل عن المدينة برفقة حرّاسه فقط قاصدًا مصر، فوصل القاهرة بعد حوالي شهر. كان على صلاح الدين تنظيم كثير من الأمور في الديار المصرية بعد أن غاب عنها حوالي سنتين قضاها في معارك متواصلة في الشام، وفي مقدمة هذه الأمور تحصين القاهرة وإعادة بناء أقسامها المهدمة، فأقدم على إصلاح أسوارها وإمداد المزيد منها، كذلك شرع في بناء قلعة القاهرة سنة ٥٧٣ هـ، التي عُرفت فيما بعد بقلعة صلاح الدين والتي أشرف على بنائها بهاء الدين قراقوش،وبئر يوسف البالغ من العمق ٨٥ مترًا (٢٨٠ قدمًا). ومن أعمال صلاح الدين الأخرى بناء جسر ضخم في الجيزة ليُشكل إحدى خطوط الدفاع الأوليّة ضد غزو مغربي محتمل.

بقي صلاح الدين في القاهرة يُشرف على الأعمال العمرانية فيها، فبنى إلى جانب المباني العسكرية بضعة مدارس لنشر العلم، وتابع إدارة البلاد الداخلية بنفسه، واهتم بالمؤسسات الاجتماعية التي تساعد الناس وتخفف عنهم عناء الحياة، وتعهد بالإنفاق على الفقراء والغرباء الذين يلجؤون للمساجد للعيش فيها، وجعل منمسجد أحمد بن طولون في القاهرة مأوى للغرباء الذين يأتون إلى مصر من بلاد المغرب. يقول ابن المقفع:

إن الملك صلاح الدين عامل رعيته في بلاد مصر بخير يعجز الواصف عن وصفه وأرسى العدل وأحسن إلى المصريين وأزال مظالم كثيرة على الناس وأمر بإبطال الملاهي في بلاد مصر وأبطل كل منكر شرير وأقام حدود شريعة الإسلام. وكان يجلس للحكم بين الناس فينصف المظلوم من الظالم ويكون في مجلسه مجموعه من الفقهاء ومشاهير الدولة للنظر في القضايا بين الناس والعمل بما توجبه أحكام الشريعة والحق والعدل.

وفي شهر جمادى الآخر سنة ٥٧٣ هـ، الموافق فيه نوفمبر من سنة ١١٧٧م، أغار الصليبيون على ضواحي دمشق، فاعتبر صلاح الدين أن الهدنة مع مملكة بيت المقدس قد نُقضت وانتهى أمرها، فجمع الرجال وسار إلى فلسطين ليُغير على بعض المواقع الصليبية.

فما كان من الصليبيين إلا أن أرسلوا جزءً كبيرًا من جيشهم إلى مدينة حارم شمال حلب ليحولوا انتباه الأيوبيين إلى تلك الأنحاء، لكن صلاح الدين استمر بغزواته على بعض المواقع الثانوية في فلسطين بعد أن فرغت من الرجال الذين أرسلوا مع الجيش الصليبي شمالاً ثم توجّه إلى عسقلان، التي قال أنها "عروس الشام"، بعد أن رأى أن الوضع مؤات لهكذا تحرّك. يقول المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن الجيش الأيوبي تكوّن من ٢٦,٠٠٠ جندي، ٨,٠٠٠ منهم كانوا يشكلون النخبة، و ١٨,٠٠٠ كانوا أرقاء زنوج من السودان. واصل صلاح الدين يغزو المواقع الصليبية الثانوية الواحد تلو الآخر، فهاجم الرملة واللد، وبلغ بوّابات القدس.

الحرب والهدنة مع بلدوين الرابع

تحرّك ملك بيت المقدس الشاب بلدوين الرابع بن عموري "الأبرص"، أثناء وجود صلاح الدين على مشارف القدس، وسار بجمع من فرسان الهيكل من مدينة غزةودخل عسقلان. ووصلت هذه الأنباء إلى صلاح الدين فعاد بقسم من جيشه إلى ضواحي المدينة، لكنه تردد في مهاجمة الصليبيين على الرغم من التفوق العددي للأيوبيين، وذلك لوجود عدد من القادة المهرة المخضرمين في صفوفهم، وكان لهذا التردد في الهجوم أثره الكبير، إذ قام الصليبيون تحت قيادة الملك بلدوينوأرناط آل شاتيون صاحب الكرك بهجوم مفاجئ بتاريخ ٢٥ نوفمبر من سنة ١١٧٧م، وأخذوا الأيوبيين على حين غرّة وهزموهم في تل الجزر بالقرب منالرملة، وقد حاول صلاح الدين تنظيم صفوف الجيش وحشد الجنود مجددًا، لكنهم تشتتوا، وصُرع في المعركة جميع حرّاسه، فرأى الانسحاب إلى مصر وإنقاذ ما تبقى من العساكر

استعد صلاح الدين لمنازلة الصليبيين مجددًا بعد عودته إلى مصر، فجمع الجنود والعتاد اللازم، ولم تثبط عزيمته رغم الهزيمة التي لحقت به في فلسطين، بل زادته إصرارًا على القتال. وفي ربيع سنة ١١٧٨م، نزل الجيش الأيوبي بقرب حمص، وحصلت بضعة مناوشات بينه وبين الجيش الصليبي، وفي شهر ربيع الأول سنة ٥٧٤ هـ، الموافق فيه شهر أغسطس سنة ١١٧٨م، هاجمت فرق صليبية أخرى مدينة حماة والقرى المجاورة وقتلت بعض السكان، لكنها هُزمت على يد حامية المدينة وأُسر

كثير من أفرادها، واقتيدوا إلى صلاح الدين الذي أمر بإعدامهم كونهم "عاثوا فسادًا في أرض المؤمنين".

أمضى صلاح الدين بقية العام في الشام دون أي يخوض معارك أخرى، لكن الحال لم يدم طويلاً على هذا النحو، فقد وصلت صلاح الدين أنباء مقلقة من جواسيسه تقول بأن الصليبيين يخططون لشن حملة عسكرية على سوريا الوسطى، فأمر ابن أخيه عز الدين فروخ شاه بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، بأن يقف على الجبهة الدمشقية ومعه ألف من الجنود استعدادًا لضبط أي هجوم، وألا يلتحم مع الصليبيين في قتال، وإن حصل وتقدموا إلى المدينة، فعليه الانسحاب وإضاءة المنارات المنصوبة على التلال المحيطة حتى يعلم صلاح الدين بمجيئهم فيُلاقيهم بنفسه. وفي شهر ذي القعدة سنة ٥٧٤ هـ، الموافق فيه شهر أبريل من عام ١١٧٩م، تقدم الصليبيون بقيادة الملك بلدوين نحودمشق متوقعين مقاومة ضعيفة، وشرعوا في مهاجمة القرى والرعاة في مرتفعات الجولان، فتصدت لهم فرقة عسكرية أيوبية بقيادة فروخ شاه، ثم انسحبت من أمامهم، فتعقبوها حتى جنوب شرق القنيطرة حيث كان الجيش الأيوبي منتظرًا، فوقعت معركة كان النصر فيها لصالح الأيوبيين. قام صلاح الدين بتعزيز قواته بعد هذا النصر، فطلب من أخاه الأصغر الملك العادل سيف الدين أبو بكر، أن يُرسل إليه ١,٥٠٠ فارس من مصر لينضموا إلى الجيش في الشام.

بحلول صيف عام ١١٧٩م، كان بلدوين الرابع قد أقام حصنًا حدوديًا سماه المؤرخون المسلمون "حصن مخاضة الأحزان" على الطريق المؤدية إلى دمشق ليؤمنها، وعزم على بناء جسر فوق نهر الأردن هو "معبر يعقوب" (يُعرف اليوم باسم جسر بنات يعقوب) ليصل الأراضي الصليبية بسهل بانياس الذي يفصل بين الإمارات الصليبية والأراضي الإسلامية. اعترض صلاح الدين على هذا المشروع واعتبره عملاً عدوانيًا تجاه المسلمين، وعرض على بلدوين ١٠٠,٠٠٠ قطعة ذهبية مقابل تخليه عن هذا المشروع، لكن الأخير رفض التسوية، فعزم صلاح الدين على مهاجمة الحصن الحدودي وتدميره، ثم سار بجيشه وجعل مركزه بانياس. هرع الصليبيون للقاء المسلمين بعد تلك الخطوة، لكن جيشهم تشتت، حيث تلكأ المشاة في الخلف، واستمر صلاح الدين يستدرجهم بعيدًا حتى ما إن تبين له أن الفرصة سانحة وإن الجيش الصليبي منهك، انقض عليهم واشتبك الجيشان في معركة طاحنة انتصر فيها المسلمون، وأُسر كثير من كبار الفرسان الصليبيين، ثم تحرّك صلاح الدين صوب الحصن وضرب الحصار عليه، ثم دخله فاتحًا في ٢٦ ربيع الأول سنة ٥٧٥ هـ، الموافق فيه ٣٠ أغسطس من سنة ١١٧٩م.

وفي ربيع سنة ١١٨٠م، وبينما كان صلاح الدين في صفد يُحضّر لغزو بيت المقدس، راسله الملك بلدوين يعرض فوافق، والواقع أن القحط في ذلك العام كان دافعًا أساسيًا لكلا الرجلين ليتوقفا عن القتال، حيث ذبلت المحاصيل ولم ينضج منها إلا القليل، فقلّت مؤن الجيشين الصليبي والأيوبي، وأصبح يتعذر على أي منهما ضرب حصار

على قلعة أو مدينة تابعة للآخر، دون المجازفة بحدوث مجاعة في صفوف الجند. رفض ريموند الثالث صاحب طرابلس الالتزام بالهدنة في بادئ الأمر وأصرّ على القتال، لكنه سرعان ما رضخ للمعاهدة بعد أن أغار الجيش الأيوبي على إمارته في شهر مايو، وظهر الأسطول الإسلامي بالقرب من مرفأ طرطوس مهددًا بالهجوم.

دوافع الحملات الصليبية
وتصدى صلاح الدين الأيوبى لها

أهم أسباب ودوافع الغزو الصليبي:

كان المجتمع الأوروبي الغربي في هذه الفترة تسوده المنازعات والحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين مما ساعد على ازدياد سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي (٨٢)، كما كان للصراعات القائمة بين رأسي العالم المسيحي الغربي حينذاك، وهما البابا والأمبراطور أثر كبير في مجريات الأحداث الأوروبية، فلقد بلغت البابوية درجة عظيمة من القوة واتساع النفوذ في هذه الفترة، مما فتح أمامهما المجال لكي تصبح القوة العالمية بمعنى أن يكون البابا هو الزعيم الروحي لجميع المسيحيين في الشرق والغرب على حد سواء (٨٣)، بجانب الخلافات المستمرة الموجودة بين الكنيستين الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الغربية، إذ أصرت كل منهما على أن تسود وجهة نظرها وأن تكون لها الأولوية على الأخرى ولهذا السبب عندما عرضت فكرة الحرب المقدسة على البابا أوربان الثاني (٤٧١ – ٤٩١هـ) (١٠٧٨ – ١٠٩٧م) وجد في تنفيذها فرصة كبيرة لإنهاء الخلاف بين الكنيستين والسيطرة على الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية وإدماجها في الكنيسة الغربية تحت زعامته، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين

[٨٢] الحروب الصليبية ص ٢١ ، ٢٤ أرنست باكر.
[٨٣] الحروب الصليبية (٣٢/١) سعيد عاشور.

واسترداد الأراضي المقدسة في فلسطين (٨٤) هذا بالإضافة إلى أغراض أخرى عديدة كانت البابوية ترغب في تحقيقها من وراء تمسكها بفكرة الحرب المقدسة، منها التخلص من نفوذ كبار رجال الإقطاع في الغرب، وإنهاء الحروب المستمرة عن طريق توجيه هذه الطاقات واستغلالها في الحرب المقدسة، عليها تفتح لهم بذلك منفذاً لحياة أفضل في الشرق بدون منازعات (٨٥)

وقد اختلفت الآراء في تفسير طبيعة الحركة الصليبية والدوافع الكامنة وراءها فمنها ما هو مادي والبعض يرى أنها وليدة الحماس أو التعصب الديني التي عرفت بها أوروبا في العصور الوسطى، وأن الباعث الحقيقي لتلك الحروب كان في الواقع هو الهوس الديني الممزوج بأغراض أخرى كالميل إلى تأسيس ممالك جديدة والحصول على الثروات الطائلة، وقد اعتبر غالبية المؤرخين القدامى والحديثين تلك الحروب أنها حروب دينية، وأن العامل الديني كان الدافع الأساسي وراءها من أجل استعادة قبر المسيح على حد زعمهم والأراضي المقدسة من أيدي المسلمين وهناك والأخرون يعتبروها أحد مظاهر التوسع الاقتصادي الاستعماري في العصور الوسطى وحقيقة الأمر، أن الحروب الصليبية كانت نتيجة لتفاعل هذه العوامل مجتمعة، لأنها قامت لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية، وأتخذت الدين وقوداً أو وسيلة لاخفاء أغراضها المذكورة (٨٦).

---

[٨٤] دور الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين في آسيا نقلي ص ٣٢.
[٨٥] مملكة بيت المقدس الصليبية، عمر كمال توفيق ص ١٨ – ١٩ ، ٣٢ - ٣٣.
[٨٦] العدوان الصليبي على العالم الإسلامي صلاح الدين نوار ص ٢٢.

ولا يمكن التقليل من الدافع الديني في تلك الحروب بأي وجه من الوجوه وإليك تفصيل تلك الدوافع والأسباب:

أولاً : الدافع الديني:

كان الدافع الديني من الأسباب الرئيسية التي دفعت بالجموع الصليبية إلى قلب المعركة، فقد كان شعار الحروب الصليبية ومما يظهر أهمية الجانب الديني أنهم قد وضعوا إشارة الصليب على أسلحتهم والأمتعة الخاصة بهم وقصدوا فلسطين بالذات (٨٧).

وقد كانت حركة الإحياء الديني قد ظهرت في غرب أوروبا في القرن العاشر الميلادي، وبلغت أشدها في القرن الحادي عشر، قد أدت إلى تقوية مركز البابوية، وإثارة الحماسة الدينية في نفوس الناس، هذه الحماسة استغلتها الكنيسية في متنفس خارجي وعندما ما ظهرت فكرة الحرب الصليبية اتخذت الكنائس الغرب الأوروبي ميداناً واسعاً لاستغلال نشاطه المكبوت وحماسته المنطلقة (٨٨).

وكان ذلك باسم تخليص القدس من أيدي المسلمين (٨٩) ، ومن أشهر من تبنى الدعوة إلى الحروب الصليبية هو البابا "أوربان الثاني" والذي يعتبر المسؤول الأول عن الترويج لحرب المسلمين والتحريض على إرسال الحملة الأولى إلى بلاد الشام وكانت الظروف مهيأة، فسارع إلى عقد

---

[٨٧] الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، شاكر أحد أبو زيد ص ١٧.

[٨٨] الحركة الصليبية (٢٠/١) سعيد عاشور الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري محمد حامد الناصر ص ٨٠.

[٨٩] الجهاد والتجديد، محمد حامد ص ٨٠.

اجتماع في مدينة (كليرمنت) في فرنسا واستمر المؤتمر عشرة أيام حضره أكثر من ثلاثمائة من رجال الكنيسة (٩٠)

كما حضره أمراء من مختلف أنحاء أوروبا، ومندوبون عن الإمبراطور البيزنطي، وممثلون عن المدن الإيطالية.. واستطاع البابا أن يثير حماس السامعين في "خطابه" فتجاوب في أرجاء المجتمع هتاف بترديد عبارة " هكذا أراد الله " وبادر الحاضرون إلى اتخاذ الصليب شارة لهم (٩١)، كما أن البابا أشار إلى ما أسماه بالخطر الإسلامي المحدق بأوروبا من جهة القسطنطينية، وأعلن أن النصارى في المشرق يعانون من ظلم المسلمين، وأن الكنائس والأديرة، قد أصابها الدمار، وحث الحاضرين على الانتقام من المسلمين (٩٢) .

والحقيقة إن ما أثاره البابا من تعرض نصارى المشرق إلى اضطهاد هو إدعاء باطل، لا يتفق وروح الإسلام وطبيعة الدعوة إليه، وما أحاط النصارى به، من رعاية وعناية (٩٣). وكان من الشعارات التي رفعت في هذه الحرب أن الحجاج من النصارى كانوا يتعرضون للاضطهاد والعدوان وهم في طريقهم إلى بيت المقدس – قبيل الحروب الصليبية وهذا إدعاء باطل كذلك (٩٤) ، يقول أحد كبار المؤرخين الأوروبيين : إن حالات الاضطهاد الفردية التي تعرض لها المسيحيون في البلدان الإسلامية في

[٩٠] أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية ص ٨١.
[٩١] الشرق الأدنى : السيد الباز العريني ص ١٣ – ١٤.
[٩٢] قصة الحضارة (١٦/٤).
[٩٣] الجهاد والتجديد ص ٨١.
[٩٤] الغزو الصليبي والعالم الإسلامي د. علي عبد الحليم محمود ص ١٠٨.

الشرق الأدنى بالذات لا يصح أن تتخذ بأي حال سبباً حقيقياً للحركة الصليبية، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية في ظل الحكم الإسلامي، فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة، وإنما سمح لهم أيضاً بتشييد كنائس وأديرة جديدة جمعوا في مكتباتها كتبا دينية متنوعة في الاهوت (٩٥). كما أن الإدعاء بتخريب الكنائس وهدم الأديرة أو مصادرتها لم يقم عليه دليل : وإنما هي شائعات دور الدعاية الباطلة بفتح جبهة على المسلمين وأهمية إعطاء دور الإعلامي عنه ربما أدى إليه تصرف بعينه في قرية بعينها، لا يمكن بحال من الأحوال أن يعتبر هو الأصل في معاملة المسلمين للمسيحيين وكنائسهم في البلاد الإسلامية (٩٦).

ويقرر أكثر من مؤرخ منصف أن النصارى الذين خضعوا لحكم السلاجقة، كانوا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا في قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها، وما وجد أي دليل على اضطهاد السلاجقة للنصارى في المشرق (٩٧).

إلا أن صيحات البابا كانت محمومة حاقدة لا تعقل ولا تفكر في العواقب الوخيمة لتصريحاته الرعناء، وإلا ماذا يعنى قوله لأتباعه : اذهبوا وأزعجوا البرابرة، وخلصوا البلاد المقدسة من الكفار، وامتلكوها لأنفسكم، فإنها كما تقول التوراة، تفيض لبناً وعسلاً (٩٨) . وقد وعد الباب الجموع

[95] الحركة الصليبية سعيد عاشور (٣٠/١).
[96] الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ص ١٠٩ .
[97] الحركة الصليبية (٢٦،٢٨/١).
[98] التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية د. أحمد شلبي (٤٣٨/٥).

المشاركين بالحرب، برفع العقوبات عن المذنبين منهم، وبإعفائهم من الضرائب، كما وعدهم برعاية الكنسية لأسرهم مدة غيابهم (٩٩) ، ولعل ما يدخل ضمن الدافع الديني أيضاً أنه ذاعت في الغرب أخبار الكرامات والمعجزات التي بثتها الكنيسة، وساد الاعتقاد بأن نزول المسيح ثانية إلى الأرض أصبح وشيكاً ولابد من المضي في الاستغفار وعمل الخير، قبل هبوطه، كما ساد تصور مفاده أنه ينبغي استرداد الأرض قبل عودة المسيح (١٠٠)

وقد أدرك البابا أن فورة الحماس الديني لن تستمر طويلاً، فدعا إلى القسم بأن تؤدى الصلاة في كنيسة القيامة، وأشاع أن اللعنة (سيف النقمة) ستحل على كل من يستولي عليه الجبن والضعف أو نكص على عقبيه، وهدد بأن يتعرض كل من لا يلبي نداء الكنيسة بالتوجه صوب الديار الإسلامية بالحرمان من الكنيسة (١٠١) .

وهذا من دهائه وقدرته على توظيف العواطف والمشاعر لخدمة مشروعه لقد أثرت الكنيسة لما لها من سلطان على قلوب الناس في غرب أوروبا في تلك العصور على الدعوة لهذه الغزوة، وترتب على دعوة الكنيسة خروج الناس أفواجاً في حملات صليبية ضخمة متلاحقة إلى المشرق الإسلامي (١٠٢)، ولا ننسى الحقد الصليبي على الإسلام وأهله، فقد انتزع من أيديهم أرضاً كانت تحت سلطتهم وحرر منهم عبيداً كان

[٩٩] أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي ص ٢٦.
[١٠٠] الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط ص ١٥٢.
[١٠١] المصدر نفسه ص ١٥٢.
[١٠٢] تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ص ٢٢.

يرزحون تحت وطأتهم واستلب منهم ملكاً كان في قبضتهم، فغلت مراجل الحقد في صدورهم، وتأججت نار العداوة في قلوبهم، وأخذوا يتحينون الفرص ليستردوا ما فقدوا وينتقموا لأنفسهم ممن نكبوهم، ومزقوا مملكتهم (١٠٣) ، وهذا المستشرق المشهور الأميرليون كايتاني (١٨٦٩م إلى ١٩٢٦م) الذي بذل معظم أمواله ليؤرخ لحركة الفتح الإسلامي في كتابه المعروف؛ حوليات الإسلام يوضح لنا سر الحقد على الإسلام والمسلمين في مقدمة كتابه حيث يقول: إنه إنما يريد أن يفهم من عمله ذاك سر المصيبة الإسلامية (كانا ستروفيكا إسلاميكا) التي انتزعت من الدين المسيحي ملايين من الأتباع في شتى أنحاء الأرض ما يزالون يدينون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ويؤمنون به نبياً ورسولاً (١٠٤)،

قال تعالى " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءَهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير " (البقرة، آية : ١٢٠) وقال تعالى " ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " (البقرة، آية : ٢١٧).

ثانياً : الدافع السياسي:

كان الملوك والأمراء الذين أسهموا في الحركة الصليبية يسعون وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها سواء قبل وصولهم إلى الشام

[١٠٣] أسباب الضعف في الأمة الإسلامية ص ١٥٧ للوكيل.
[١٠٤] الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ص ١١٠.

وفلسطين أو بعد استقرارهم فيهما والمعروف أن النظام الإقطاعي ارتبط دائماً بالأرض وبقدر ما يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة، بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية في المجتمع وفي ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التي يمكن أن تواجه الأمير والفارس هي عدم وجود أقطاع أو أرض له، مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ، وأدى هذا إلى بقاء عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض، لأن من القواعد الأساسية في هذا النظام أن الابن الأكبر وحده هو الذي يرث الإقطاع، فإذا مات صاحب الإقطاع انتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه (١٠٥)

وهذا يعني بقاء بقية الأبناء دون أرض، وهو وضع ممقوت في المجتمع الإقطاعي، الأمر الذي جعل الفرسان والأمراء المحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاع، أو الإلتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع وكان إن ظهرت الحركة الصليبية لتفتح باباً جديداً أمام ذلك النفر من الأمراء والفرسان، فلبوا نداء البابوية، وأسرعوا إلى الإسهام في تلك الحركة لعلهم ينجحون في تأسيس إمارات لأنفسهم في الشرق، تعوضهم ما فاتهم في الغرب. أما الأمراء والفرسان الذين كانوا يمتلكون إقطاعات فقد وجدوا في المشاركة في الحركة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم وبدراستنا لمراجع الحروب الصليبية نرى أن أطماع أمراء الحملة الأولى تجلت في عدة مظاهر سياسية، فقد أخذوا يقسمون الغنيمة

---

[١٠٥] أوروبا في العصور الوسطى (٤٩/٢) سعيد عبدالفتاح عاشور الوسيط في تاريخ فلسطين ص ١٥٤.

وهم في الطريق أي قبل أن يستولوا على الغنيمة فعلاً، وسوف نرى بإذن الله تعالى كيف أستحكم النزاع فيما بينهم أمام أنطاكية لرغبة كل واحد منهم في الفوز بها، وكيف أن من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسبا في الطريق قنع به وتحلى عن مشاركة بقية الصليبيين في الزحف على البيت المقدس، وهو الهدف الأساسي للحملة وكثيراً ما دب الخلاف بينهم – بعد استقرارهم – حول حكم إمارة أو الفوز بمدينة، وعبثاً حاولت البابوية أن تتدخل لفض المنازعات بين الأمراء وتحذرهم بأن المسلمين يحيطون لهم، وأن الواجب الصليبي يستدعي تضامنهم لدفع الخطر عن أنفسهم ولكن تلك الصيحات ذهبت أدراج الرياح، لأن هدف الأمراء كان ذاتياً سياسياً، ولم يكن يهمهم كثيراً رضا البابا أو سخطه، بل إن بعض الأمراء لم يحجموا عن مخالطة القوى الإسلامية المجاورة ضد إخوانهم الصليبيين مما يدل على أن الوازع الديني كثيراً ما ضعف عند أولئك الأمراء أمام مصالحهم السياسية (١٠٦)

أما بالنسبة للأمبراطور البيزنطي (الكسيوس) فإنه لم يعترض على أهداف أمراء الحملة، لأنه إذا تسنى للدولة البيزنطية استرداد ما كان لها من أملاك قبل غارات الأتراك عليها، جاز أن تقوم في تخومها إمارات مسيحية حاجزة، لها حق السيادة عليها، ولضمان الحصول على ذلك حرص الإمبراطور على الحصول على يمين الولاء من أمراء الغرب، وبذلك توافقت المصالح كلا الجانبين المسيحيين في القيام بالحرب والعدوان على الأرض الإسلامية والواقع أنه من العسير الفصل بين العوامل المادية والعوامل

[١٠٦] الوسيط في تاريخ فلسطين ص ١٥٥.

المعنوية التي دفعت المسيحيين إلى الحروب الصليبية، فالفقر والرغبة في الكسب، وروح المغامرة كانت عوامل هيأت الجو المناسب للحروب، غير أن هذه العوامل لم تظهر إلا بما نجم عن فكرة للحرب "المقدسة" وتخليص الأرض، من حماس ديني، والواضح أن فكرة الحرب نبعت من السياسة البابوية، وسياسة الدولة البيزنطية والحروب الأسبانية الإسلامية، فمما سهل أمر إعلان الحرب على المشرق الإسلامي، مادرج عليه الأسبان والفرنسيون في قتال المسلمين في بلاد الأندلس، حيث اتخذ هذا القتال صفة الحرب المقدسة، سواء من جهة المسلمين، حيث أثار "المرابطون" في المغرب الإسلامي الجهاد الديني، أو من جهة المسيحيين في الحالة النفسية التي اقترنت بتوجيه الحرب الصليبية إلى الشرق، حتى أن المؤرخ الكبير "ابن الأثير" نظر إلى الخطر الخارجي نظرة شمولية، واعتبر أي عدوان على طرف من أطراف العالم الإسلامي – سواء في الشرق والغرب – رافد يصيب في النهر الأكبر، وهو الغزو الأجنبي المنظم على أكبر قوة حضارية في العصور الوسطى، وهو الدولة الإسلامية (١٠٧) .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كشف المؤرخ المذكور بوضوح عن أسباب نجاح هذا الغزو، ذي الشعب (الأندلس، صقلية، الشام – فلسطين) والتي تكمن في الفرقة، والأطماع الذاتية، وفقدان الروح الوثابة التي تميز بها الحكام والمسلمون الأوائل بناة الدولة الإسلامية (١٠٨) ، وقد كان واضح للعيان أن الكنيسة الغربية كانت محمومة لتوسيع رقعتها الإقطاعية،

---

[١٠٧] الكامل في التاريخ نقلاً عن الوسيط في تاريخ فلسطين ص ١٥٦.
[١٠٨] الوسيط في تاريخ فلسطين ص ١٥٦.

والسيطرة على الكنائس الشرقية، إضافة إلى رغبتها في حرب المسلمين، ومن حقائق التعصب الديني، وجود الجماعات الدينية التي كانت ترتبط بالكنيسة مباشرة وكانت ذات أثر فعال في تلك الحروب، منها فرسان الإسبتارية الذين كانوا ملتزمين بالدفاع عن ممتلكات الصليبيين في المشرق، وحماية الأماكن المقدسة وكانوا يرتبطون بالبابا مباشرة، وكانت كنائس بيت المقدس قد خصصت عشر دخلها لمساعدتهم في أداء رسالتهم الدينية المزعومة، وهناك هيئة الفرسان الداوية التي اتخذت مقرها في جزء من هيكل سليمان عليه السلام في المسجد الأقصى، وسميت باسم : فرسان المعبد، ثم حرفت إلى اسم الداوية (١٠٩) هذا وقد كانت للبابوية ورجال الكنيسة القدرة على التأثير والضغط والتهديد بالنسبة لمن لاينفذ رغبة الكنيسة بإصدار قرارات الحرمان التي تقضي بالحرمان من النعيم في الآخرة ونبذ طاعته في الدنيا (١١٠) على حد زعمهم.

ثالثاً : الدافع الاجتماعي:

ساد المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، تمايز طبقي كبير، فقد سادت فيه طبقة رجال الدين وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان (١١١)، وكانت طبقة الفلاحين تمثل الأكثرية المغلوبة على أمرها، والتي كان أفرادها يكدحون، ليسدوا حاجة الطبقتين الأوليين. كان الفرح الأوروبي مغلوباً على أمره، وكان مطالباً بالتزامات عديدة لأصحاب الإقطاع، وكان

---

[١٠٩] جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، د. فايد حماد عاشور ص ٨٦.

[١١٠] تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ص ٢٤.

[١١١] الجهاد والتجديد ص ٨٤.

البابا على دراية أحوال الفلاحين الكادحين، فوعدهم بإلغاء التزاماتهم نحو أسيادهم وأغراهم بخيرات الشرق الإسلامي، كان آلاف الفلاحين يعيشون عيشة منحطة في نظام الإقطاع، حيث شيدوا لأنفسهم أكواخاً من جذوع الأشجار وفروعها وغطيت سقوفها بالطين والقش، دون أن يكون لها نوافذ، ولايوجد داخلها أثاث بل كان ما يجمعه الفلاح، يعتبر ملكاً خاصاً للسيد الإقطاعي، كما يعتبر محروم من الملكية الشخصية (١١٢) .

وكانوا مثقلين بالالتزامات الخدمية لاسيادهم الإقطاعيين في شتى المجالات إلى جانب حرمانهم من منتجاتهم وبذلك تظهر مدى التعاسة والبؤس الذي كان يعيشه غالبية شعب أوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي وهكذا لما ظهرت الدعوة للغزو الصليبي، وجدت هذه الغالبية العظمى فرصتها للخلاص من حياتها الشاقة المليئة بالذل والهوان، ونظروا إلى أخطار الاشتراك في هذا الغزو. نظرة هينة أمام ما كانوا يعيشون فيه فإن ماتوا في هذه الحرب كان لهم الخلاص وإن نجوا، كانت لهم حياة جديدة افضل مما كانوا عليه (١١٣) ، ولقد عرفت الكنيسة كيف تلعب بعقول هؤلاء، وتوغر صدورهم ضد الإسلام وأهله، وخدعتهم بأنهم سيحررون بيت المقدس والقبر المقدس، يباركهم الرب، والبابا، لذلك لهم يردعهم رادع عن الذبح والقتل، بل كان قتل المسلم مرضاة ينال عليها الصليبي ثواباً يوم الدنيونة (١١٤).

---

[١١٢] المصدر نفسه.
[١١٣] تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ص ٢٤.
[١١٤] أثر الشرق الإسلامي د. عبدالله الربيعي ص ١٣٨.

رابعاً: الدافع الاقتصادي :

يعتبر التطلع إلى خيرات المشرق الإسلامي، من أقوى دوافع الحروب الصليبية بعد الدوافع الدينية وقد عبر البابا (أوربان) نفسه في خطابه عن أهمية العامل الاقتصادي بالنسبة لواقع أوروبا آنذاك فقال : لا تدعوا شيئاً يقعد بكم ... ذلك أن الأرض التي تسكنونها الآن، والتي تحيط بها البحار وقلل الجبال ضيقة على سكانها الكثيرين، وتكاد تعجز عن كفايتهم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، ويلتهم بعضكم بعضا... إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها بل هي فردوس المباهج (١١٥) وإن جميع الوثائق تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية في غرب أوروبا في أواخر القرن الحادي عشر، وكانت فرنسا بالذات تعاني من مجاعة شاملة قبيل الحملة الصليبية الأولى، ولذلك كانت نسبة المشاركين منها تفوق نسبة الآخرين، فقد كانت الأزمة طاحنة حيث الجأت الناس إلى أكل الحشائش والأعشاب، وبذلك جاءت هذه الحرب لتفتح أمام أولئك الجائعين بابا جديدة للخلاص من أوضاعهم الصعبة وهذا ما يفسر أعمال السلب والنهب للحملة الأولى ضد الشعوب النصرانية التي مروا في أراضيها (١١٦)

كذلك اشترك عدد كبير من تجار المدن الإيطالية والفرنسية والإسبانية في الحروب الصليبية بغرض استغلالي بحت من أجل السيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية التي أصبحت مصدر ثراء للمشتغلين بها، لذلك قامت أساطيلهم بدور فعال في الاستيلاء على المراكز الرئيسية في الشام،

[١١٥] المصدر نفسه ص ٣٤.

[١١٦] الحركة الصليبية د. سعيد عاشور (١/٣٠-٣٢).

فساعد الجنوية الفرنج في الاستيلاء على الأنطاكيه سنة ٤٩٠هـ - ١٠٩٧م، وأسهم البنادقة بعد ذلك بعامين في استيلاء اللاتين على بيت المقدس، وكان هدف هذه الجاليات الأول والأخير هو الربح والكسب المادي ولم يكن بعينها الباعث الديني إلا بالقدر الذي يحقق مصالحها، ويكفي أن نعرف أن شعار البنادقة الذين عرفوا به وقتذاك كان: لنكن أولاً بنادقة ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين (١١٧) ، ولذلك قامت جمهوريات إيطاليا (جنوا - بيزا - البندقية) بعقد معاهدات مع أمراء الصليبيين بالمشرق حصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية هامة (١١٨).

خامساً : تبدل ميزان القوى في حوض البحر المتوسط:

منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) لصالح الغرب الأوروبي مركز الحركة الصليبية، فضعف الدولة البيزنطية وترنحها تحت ضربات السلاجقة القوية جعلها تسارع إلى الاستنجاد بأوروبا الغربية من ناحية، ثم اختلال أوضاع المسلمين في الجناح الغربي من العالم الإسلامي خاصة في الأندلس وصقلية، وما قابل ذلك من تيسير أسباب القوة والظهور لدى أعدائهم، مما جعل الغرب الأوروبي يرفد النصارى الإسبان بشتى صنوف الدعم والمساندة في صراعهم مع مسلمي الأندلس على الاستنجاد بالمرابطين، ومسلمي صقلية على الاستنجاد بإفريقية من ناحية ثانية كل ذلك أدى إلى دخول الحركة الصليبية في طورها الجديد الذي اتخذ

[117] الحروب الصليبية المقدمات السياسية د. علية الجنزوري ص ٢٤٩.

[118] الجهاد والتجديد، محمد حامد الناصر ص ٨٣.

صفة العالمية (١١٩) وكانت البابوية تدعم هذه الحرب بالموافقة والتوجيه والدعاية والدعم المعنوي، فهذه حروب صليبية متقدمة على إعلان البابا أوربان الثاني بدء الزحف الصليبي إلى المشرق سنة ٤٨٨هـ - ١٠٩٥م (١٢٠).

وتعتبر إفريقية بمدلولها التاريخي أحد هذه الميادين في الصراع الصليبي، فقد كانت الجبهة الإفريقية ميدانا نشطت فيه قوى العدوان الصليبي لعدة قرون، يتمثل ذلك في حملات عديدة وجهت إليها الواحدة تلو الأخرى، ولم تفتر للصليبيين في ذلك همة ولم يوهن الفشل لهم عزيمة، فكما أن بلدان المغرب الإسلامي كانت أول من أكتوى من البلاد الإسلامية بنار الاستعمار الأوروبي الحديث

كانت بلدان الجناح الغربي من العالم الإسلامي ومن ضمنها إفريقية هي التي تلقت الضربات الأولى للصليبيين، والسبب في ذلك يعود إلى عدة اعتبارات جغرافية وتاريخية من أهمها قربها الشديد من غرب أوروبا مركز الحركة الصليبية ومعرفة الأوروبيين الواسعة نسبياً لأوضاع المسلمين في هذه المنطقة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً لسهولة الاتصال بين الطرفين، ثم الحقد الشديد الذي كان يكنه الأوروبيون للمسلمين المغاربة (١٢١)

[١١٩] الحروب الصّليبية في شمال إفريقية ص ١٣،١٢،١١.

[١٢٠] الحروب الصّليبية في شمال إفريقية ص ١٢.

[١٢١] كلمة المغاربة كانت تطلق على سكان المغرب الإسلامي بأسره والذي كان يضم الأندلس والجزر الإسلامية غرب المتوسط إلى جانب أقطار المغرب العربي، وليس كما درج في العصر الحديث يقصرها على أهل المغرب الأقصى.

وبالذات لكونهم هم الذين تولوا عبء الجهاد في أوروبا أكثر من غيرهم من المسلمين، وما كان يشعر به الأوروبيون من خطر هؤلاء إذ تهيأت لهم الوحدة والقيادة المخلصة، لكل ذلك كانت أوروبا تتربص بمسلمي هذه المنطقة الدوائر وتتحفز للوثوب عليهم منتظرة الفرصة المناسبة، وأخذت هذه الفرصة التي طالما انتظرها محركو قوى العدوان الصليبي تتهيأ منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد)، إذ أصاب الجناح الغربي من العالم الإسلامي من التمزق ما جعله يسير بخطى حثيثة نحو التردي إلى الهاوية، ولم يكن وضع إخوانهم في المشرق بأحسن حال منهم، فكان هذا التمزق وافتراق الكلمة هو السبب الأهم في البلاء الذي نزل بالمسلمين في المشرق والمغرب على حد سواء وما أشبه اليوم بالأمس، لقد كان ولا يزال تفرق العرب والمسلمين هو الباب الواسع الذي يدخل إليهم أعداؤهم منه لضربهم في عقر ديارهم، فكان أن انطلقت القوى الصليبية في موجة عاتية تضرب المسلمين في ثلاث جبهات في آن واحد في الأندلس وصقلية وإفريقية (١٢٢).

الأندلس: فقد شهدت الجبهة الأندلسية منذ أواسط ذلك القرن نشاطاً ملحوظاً تمثل في شن هجوم قوي مستمر من قِبل النصارى الإسبان بزعامة مملكة قشتالة على مسلمي الأندلس، حيث أخذت المدن والمعاقل الإسلامية تسقط في أيديهم تباعاً، وأحرزوا النصر على المسلمين في معارك عديدة وتوجت تلك الانتصارات بسقوط مدينة طليطلة سنة ٤٧٨هـ في يد الفونسو السادس ملك قشتالة تلك الكارثة التي روعت العالم الإسلامي بأسره وحيال

---

[١٢٢] الحروب الصليبية في شمال إفريقيا ص ١٣.

هذا الضغط المتواصل من النصارى الإسبان مسلموا الأندلس إلى الاستنجاد بالمرابطين من العدوة المغربية، فكانوا يرسلون الاستغاثة تلو الأخرى لهذه القوة الفتية، حتى إذا ما قضى أميرها يوسف بن تاشفين على جيوب المقاومة لدولته في المغرب عبر البحر إلى الأندلس لجموع غفيرة حيث التقى بألفونسو السادس في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ التي سيطر المرابطون ومن ساعدهم من الأندلسيين بانتصارهم الرائع فيها صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي، وبانتصار المسلمين في تلك المعركة أوقف المد المسيحي الإسباني حتى تهيأت له ظروف أخرى فيما بعد.

صقلية: وأما الجبهة الصقلية فقد أدى ظهور النورمان كقوة جديدة في ميدان السياسة الدولية إلى تغير ميزان القوى في غرب المتوسط لصالح القوى النصرانية، إذ ما كاد هؤلاء القادمون الجدد موطئ قدم لهم في جنوب إيطاليا ويحصل جيسكارد أكبر زعمائهم على اعتراف البابا نقولا الثاني به في مؤتمر ملفى سنة ١٠٥٩م وأعلن عن مشروعه في توجيه قواه ضد مسلمي صقلية إرضاء للبابوية التي كانت ترى في ذلك تحقيقاً لأهدافها الصليبية من ناحية وإبعاداً للخطر النورماني عن ممتلكاتها من ناحية أخرى، فشجعت هذا المشروع، وكدليل على موافقتها وتشجيعها أرسل البابا إلى جيسكارد راية مقدسة لينال هو وجنده ببركتها النصر على المسلمين وأصر على أن الفتوحات المرتقبة من أجل المسيح عليه السلام هي أكثر أهمية من إرسال الهدايا إلى روما (١٢٣) ، وتّم الاستيلاء على الجزيرة في سنة ٤٨٤هـ في عهد رجار الأول ثم وثبت قواته على مالطة

[١٢٣] الحروب الصليبية في شمال إفريقية ص ١٤.

في العام التالي واحتلتها وأخذ يتحين الفرصة للانقضاض على إفريقية (١٢٤).

إفريقية: وأما الجبهة الإفريقية، فقد نالت حظها هي الأخرى من العدوان الصليبي في تلك الآونة بفعل قوة ناشئة هي المدن البحرية الإيطالية، فقد استغلت هذه المدن غياب القوى البحرية القديمة المتمثلة في الأسطولين الإسلامي والبيزنطي عن مياه البحر الأبيض المتوسط منذ أوائل ذلك القرن لإنشغال كلا الطرفين بمشاكله الداخليه، وأخذت أساطيلها تمخر مياه ذلك البحر القريبة من الشواطئ الأوروبية أولاً خوفاً من أسطول مجاهد العامري صاحب دانية الذي استطاع تجميد نشاطها لفترة من الوقت حتى إذا ما تمكنت من إزالة ذلك الخطر بدأت منذ أواسط القرن المذكور تجوب مياه البحر الأبيض المتوسط شرقاً وغرباً، وقد وضعت هذه المدن قوتها البحرية في خدمة الأهداف الصليبية منذ البداية لتحقيق مكاسب خاصة بها فبتشجيع الباب لاون التاسع استولى تحالف من جنوة وبيزا على جزيرة سردينيا الإسلامية سنة ٤٤٢هـ /١٠٦٣م حيث خرب أرباضها وميناءها وغنم غنائم كبيرة، وكما اشتركت هذه الأساطيل في حروب الجبهة الصقلية اشتركت في حروب الجبهة الأندلسية، فأسهمت في مطاردات المسلمين الأندلسيين عن طريق البحر وأخذت نصيبها من الغنيمة، وفرضت حصاراً بحرياً على المرية حتى دفعت تلك المدينة فدية ضخمة تقدر بمبلغ

---

[١٢٤] المصدر نفسه ص ١٥.

١١٣ألف دينار ذهبي، كما أجبرت بلنسية على دفع أتاوة مماثلة تقدر بمبلغ ٢٠ ألف دينار ذهبي لتفتدي نفسها بذلك من النهب والسلب(١٢٥)

هاجمت الجزائر الشرقية (جزر البليار) عدة مرات. ونتيجة لتلك، أصبحت القوة البحرية الإيطالية هي المتحكمة في مياه البحر الأبيض المتوسط مما دفعها إلى مزيد من المغامرة، فوجهت نشاطها إلى إفريقية التي كانت لا تزال تحتفظ بقوة بحّرية بمّد يد المساعدة لإخوانهم في صقلية أو غيرها من ناحية ثانية، ثم لتحقيق أهداف الحركة الصليبية في إفريقية من ناحية ثالثة، فقامت قوة بحرية ضخمة مكونة من أسطولي جنوة وبيزا مدعومة بفريق من مدينة أمالفي وقوة عسكرية أخرى أمدهما بها البابا بمهاجمة مدينة المهدية سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م أي بعد الاستيلاء على طليطلة بعامين وقبيل الاستيلاء الكامل على صقلية واستولت عليها باستثناء قلعتها، وظلت في يدها إلى أن دفع صاحبها تميم بن المعز للقوى المتحالفة فدية مالية ضخمة وعقد مع الغزاة معاهدة نصّ أحد بنودها على تعهّد تميم بعدم التعرض للسفن الإيطالية في المياه الإفريقية، ومنحهم امتيازات تجارية في بلاده كما سيذكر في موضعه ومما تقدم يتضح أن هذا الهجوم الصليبي على القسم الغربي من العالم الإسلامي منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) والذي كانت تدير دفته البابوية قد احتدم في ثلاث جبهات كانت إفريقية إحداها ولا شك أن هذا الهجوم كان وجها من أوجه الحركة الصليبية، وهذا يؤكد أن الحروب الصليبية بدأت في إفريقية قبل

---

[١٢٥] القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط أرشيبالد لويس ص ٣٧٢.

الزحف الصليبي إلى المشرق، ويؤكد هذه الحقيقة ما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ٤٩١هـ (١٢٦)

إذ يفهم من النص الذي أورده أن تلك الحوادث كانت مترابطة يحركها محرك واحد وأنها كانت بداية لموجة الحروب الصليبية في ذلك الطور من أطوار الحركة الصليبية إذ يقول : كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس .. ثم قصدوا سنة أربعة وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها .. وتطرقوا إلى إفريقية فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم – ثم ملكوا غيره غيره على ما تراه – فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام(١٢٧)

وعلى الرغم من اتجاه معظم قوى الحركة الصليبية إلى المشرق، إلا ان ذلك لم يمنع من بقاء فكرة احتلال إفريقية ماثلة في أذهان ذوي الأفكار الصليبية وبقي تطلع النورمان للاستيلاء عليها قائماً حتى تم لهم ذلك في عهد رجار الثاني حيث استولى على معظم سواحلها من طرابلس شرقاً إلى مدينة تونس غرباً في سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، فكانت الحرب الصليبية مشتعلة في الجبهة الإفريقية أثناء احتدامها في جبهة المشرق، وبقي الوجود النورماني ماثلاً فيها حتى قام عبدالمؤمن بن علي زعيم دولة الموحدين بطردهم من المهدية آخر معاقلهم فيها سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م

---

[١٢٦] الحروب الصليبية في شمال إفريقية ص ١٦.
[١٢٧] الكامل في التاريخ نقلاً عن الحروب الصليبية في شمال إفريقيا ص ١٧.

(١٢٨) ، وعندما حدث نوع من تبدل ميزان القوى في المغرب الإسلامي نجد ذلك ساهم في جبهة المقاومة الإسلامية في المشرق في عهد نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين الأيوبي، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

[١٢٨] الحروب الصليبية في شمال إفريقيا ص ١٨.

توسّع الدولة الأيوبية

على يد صلاح الدين الأيوبى

فتح أطراف بلاد ما بين النهرين

توفي سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود في ٣ صفر سنة ٥٧٦ هـ، الموافق فيه ٢٨ يونيو من سنة ١١٨٠م، وخلفه شقيقه عز الدين في إمارة الموصل. في ٢٥ رجب سنة ٥٧٧ هـ، الموافق فيه ٤ ديسمبرسنة ١١٨١م، توفي الملك الصالح بن نور الدين زنكي في حلب. قبل وفاته، لما يئس من نفسه استدعى الأمراء فحلفهم لابن عمه عز الدين مسعود بن قطب الدين صاحب الموصل، لقوة سلطانه وتمكنه، ليمنعها من صلاح الدين. رُحّب بعز الدين في حلب، ولكن تملّكه لحلب والموصل كان أمرًا يفوق قدراته، لذا تنازل عن حلب لأخيه عماد الدين زنكي، في مقابل سنجار والخابور والرقة ونصيبين وسروج وغير ذلك من البلاد. لم يحاول صلاح الدين استغلال تلك الظروف احترامًا للمعاهدة التي عقدها في السابق مع الزنكيين.

وفي ٥ محرم سنة ٥٧٨ هـ، الموافق فيه ١١ مايو سنة ١١٨٢م، غادر صلاح الدين الأيوبي القاهرة مع نصف الجيش الأيوبي المصري والعديد من المتطوعين إلى الشام. وعندما علم أن القوات الصليبية احتشدت على الحدود لاعتراضه، غير طريقه عبر سيناء إلى أيلة، وهناك لم يلق صلاح الدين أي مقاومة من قوات بلدوين. وعندما وصل إلى دمشق

في يونيو، أغار عز الدين فروخ شاه على بلاد طبرية، واحتل دبورية وحابس جلدق، وهو أحد الحصون ذات الأهمية الكبيرة للصليبيين. في يوليو، أرسل صلاح الدين فروخ شاه لمهاجمة كوكب الهوا. وفي أغسطس، شنّ الأيوبيون هجومًا بريًا وبحريًا للاستيلاء على بيروت؛ وقاد صلاح الدين جيشه في سهل البقاع، ولما بدا لصلاح الدين أن الهجوم قد يفشل، فضّل إيقاف هجومه والتركيز على مهمته نحو في بلاد ما بين النهرين.

دعا مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين وهو أحد أمراء حران، صلاح الدين لاحتلال بلاد الجزيرة، الواقعة شمال بلاد ما بين النهرين. ومع انتهاء الهدنة بينه وبين الزنكيين رسميًا في جمادى الأول سنة ٥٧٨ هـ، الموافق فيه شهر سبتمبر من عام ١١٨٢م، وقبل سيره إلى بلاد الجزيرة، كان التوتر قد ازداد بين الحكام الزنكيين في المنطقة، نظرًا لعدم رغبتهم في دفع الجزية لصاحب الموصل. وقبل عبورهالفرات، حاصر صلاح الدين حلب لمدة ثلاثة أيام، بمجرد أن انتهت الهدنة. وما أن وصل إلى قلعة البيرة قرب نهر الفرات، حتى انضم إليه كوكبري ونور الدين صاحب حصن كيفا، واستولت القوات المشتركة على مدن الجزيرة الواحدة تلو الأخرى فسقطت الرها وتلتها سورج ثم الرقة وقرقيسية ونصيبين . كانت الرقة نقطة عبور هامة والتي كانت في يد قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، الذي سبق وخسر منبج أمام قوات صلاح الدين الأيوبي عام ١١٧٦م. لما رأى قطب الدين كبر حجم جيش صلاح الدين، لم يُقدم على إبداء أي مقاومة واستسلم على أن يحتفظ بممتلكاته. أثار صلاح الدين

الأيوبي إعجاب أهالي المدينة بعدما أمر بإلغاء عدد من الضرائب، حيث قال "إن شر الحكام هم من يسمنون وشعوبهم جياع". من الرقة، غزا ماكسين ودورين وعرابان والخابور، والتي خضعت جميعها له.

ثم توجّه صلاح الدين لغزو نصيبين التي سلّمت دون مقاومة. كانت نصيبين بلدة متوسطة الحجم، ليست ذات أهمية كبيرة، لكنها كانت تقع في موقع استراتيجي بين ماردين والموصل ويسهل الوصول إليها من ديار بكر. في خضم هذه الانتصارات، وردت صلاح الدين أخبار تقول أن الصليبيين أغاروا على قرى دمشق. فأجاب «دعهم.. ففي الوقت الذي يهدمون فيه القرى، نستولي نحن على المدن؛ وعندما نعود، سيتعين علينا جمع المزيد من القوة لمحاربتهم» وفي الوقت نفسه، في حلب، داهم أميرها الزنكي مدن صلاح الدين في الشمال والشرق، مثل باليس ومنبج وسورج وبوزيع والقرضين، كما دمر قلعته في بلدة أعزاز لكي لا يستخدمها الأيوبيون إن استطاعوا الاستيلاء عليها

ضم حلب

بعد الموصل اهتم صلاح الدين بضم حلب، فأرسل شقيقه تاج الملوك بوري لاحتلال تل خالد، الواقعة على بعد ١٣٠ كيلومتر شمال شرق الموصل، وجهّز لحصارها، إلا أن حاكم تل خالد استسلم مع وصول صلاح الدين نفسه في ١٧ مايو قبل ضرب الحصار. بعد تل خالد، قام جيش صلاح الدين الأيوبي بالتوجه شمالاً إلى عينتاب لاحتلالها، ومن ثم العودة سريعًا لمسافة ٦٠ كم في اتجاه حلب. وفي ٢١ مايو، عسكر صلاح الدين خارج

حلب، وتمركز بنفسه شرق قلعة حلب، كما طوّقت قواته ضاحية بناقسة في الشمال الشرقي وباب جنان في الغرب، وتمركز باقي رجاله بالقرب من المدينة، على أمل فتحها في أقل وقت ممكن.

لم يقاوم عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود لفترة طويلة، حيث لم يكن يحظ بشعبية بين رعاياه، ولرغبته في العودة إلى سنجار المدينة التي كان يحكمها سابقًا. عقدت مفاوضات بغرض تبادل الأراضي، على أن يسلّم زنكي حلب إلى صلاح الدين الأيوبي في مقابل استعادة سيطرته على سنجار ونصيبين والرقة وسروج، وأن تحارب قوات زنكي إلى جانب جيش صلاح الدين. وبحلول ١٨ صفر ٥٧٩ هـ / ١٢ يونيو ١١٨٣ م، أصبحت حلب في أيدي الأيوبيين. لم يعلم أهل حلب بتلك المفاوضات، لذا فوجئوا حين رأوا راية صلاح الدين الأيوبي مرفوعة فوق قلعة حلب. عندئذ، عرض أميران أحدهما عز الدين جردق الصديق القديم لصلاح الدين خدماتهما على صلاح الدين، الذي رحب بذلك. استبدل صلاح الدين القضاء الحنفي بالقضاء الشافعي، مع وعد بعدم التدخل في القيادة الدينية للمدينة. وعلى الرغم من حاجة صلاح الدين للمال، إلا أنه سمح لزنكي بالمغادرة بكل ما استطاع حمله من خزائن قلعة المدينة، وبيع المتبقي لصلاح الدين نفسه.

على الرغم من تردده فيما مضى في إتمام عملية المبادلة، إلا أنه كان واثقًا من نجاحه لتيقّنه من أن حلب هي "الباب الذي سيفتح له الأراضي" وأن "هذه المدينة هي عين الشام وقلعتها وبؤبؤها". بالنسبة لصلاح الدين الأيوبي، كان الاستيلاء على المدينة يمثّل له نهاية أكثر من ثماني سنوات

من الانتظار، فقد قال لفروخ شاه "نحن لا نملك إلا الانتظار، وحلب ستكون لنا." فمن وجهة نظره، أنه باستيلائه على حلب سيستطيع الآن تهديد الساحل الصليبي كله

بعد أن قضى ليلة واحدة في قلعة حلب، سار صلاح الدين إلى حارم بالقرب من أنطاكية الإمارة الصليبية. كانت حارم تحت حكم "سرخك" أحد المماليك صغار الشأن، الذي قدم صلاح الدين الأيوبي له عرضًا بمدينةبصرى وأراضٍ في دمشق في مقابل حارم، ولكن عندما طلب سرخك

الحصول على المزيد أرغمته حامية البلدة على الخروج حيث تم إلقاء القبض عليه من قبل تقي الدين نائب صلاح الدين الأيوبي بعد مزاعم بأنه كان يخطط للتنازل عن حارم إلى بوهمند الثالث أمير أنطاكية. بعد استسلام حارم، شرع صلاح الدين الأيوبي في ترتيب دفاعات المدينة استعدادًا للصليبيين، وأوفد إلى الخليفة وأتباعه في اليمن وبعلبك بأنه سيهاجمالأرمينيين. وقبل أن يهم بالتحرك، كان لا بد من تسوية بعض التفاصيل الإدارية، فقد وافق صلاح الدين الأيوبي على هدنة مع بوهمند في مقابل رد أسرى مسلمين كان يحتجزهم، ثم ولّى علم الدين سليمان بن جندر،وهو الأمير الذي انضم إلى صلاح الدين في حلب، إدارة أعزاز، كما ولّى سيف الدين اليزقوج، مملوك عمه أسد الدين شيركوه السابق الذي أنقذه من محاولة اغتيال في أعزاز، إدارة حلب.

حرب صلاح الدين الأيوبى من أجل الموصل

مع اقتراب صلاح الدين من الموصل، كان عليه تبرير مسألة الاستيلاء على تلك المدينة الكبيرة. استغاث زنكيو الموصل بالخليفة العباسي الناصر لدين الله في بغداد الذي كان وزيره يفضلهم، فأرسل الناصر بدر البدر، وهو شخصية دينية رفيعة المستوى، للتوسط بين الجانبين. وصل صلاح الدين إلى المدينة في ١٠ نوفمبر سنة ١١٨٢م، ولم يقبل عز الدين شروطه لأنه اعتبرها خدعة كبيرة، وعلى الفور ضرب صلاح الدين حصارًا على المدينة المحصنة جيدًا.

بعد عدة مناوشات طفيفة والمأزق الذي وقع فيه أمام الخليفة، قرر صلاح الدين الأيوبي أن يجد طريقة للانسحاب من الحصار دون أن يلحق ذلك ضررًا بسمعته، لذا قرر أن يهاجم سنجار التي يحكمها شرف الدين أمير أميران هندوا شقيق عز الدين، مع ترك قوة لمواصلة الحصار، فسقطت سنجار بعد حصار دام ١٥ يومًا في ٣ رمضان سنة ٥٧٨ هـ، الموافق فيه ٣٠ ديسمبر سنة ١١٨٢م. لم يلتزم قادة وجنود صلاح الدين بانضباطهم ونهبوا المدينة، وتمكن صلاح الدين بنفسه من حماية حاكم المدينة وضباطه بإرسالهم إلى الموصل. وبعد أن ترك حامية في سنجار، انتظر حتى يجمع جنده من حلب وماردين وأرمينيا لمواجهة عز الدين.[١٢٨] توجّه صلاح الدين بجيشه للقاء قواته في حران في شهر ذي القعدة من سنة ٥٧٨ هـ، الموافق فيه شهر فبراير من عام ١١٨٣م،

وعندما علم عز الدين بقدوم جيش صلاح الدين، أرسل رسله في طلب السلام، وفرّق قواته.

وفى ذى القعدة سنة ٥٧٨ الموافق فيه ٢ من مارس ١١٨٣ م كتب العادل من مصر إلى صلاح الدين الأيوبي بأن الصليبيين قد طعنوا قلب الإسلام، فقد أرسل صاحب الكرك أرناط آل شاتيون، سفنًا من خليج العقبة لمداهمة البلدات والقرى قبالة ساحل البحر الأحمر، وعلى الرغم من أن تلك المحاولة لم تكن هادفة لفرض النفوذ الصليبي على البحر أو للتحكم في طرق التجارة، وكانت مجرد قرصنة، كتب عماد الدين بأن الغارة كانت مقلقة للمسلمين لأنهم لم يكونوا معتادين على الهجمات عبر البحر، وأضاف ابن الأثير بأن السكان لم يعهدوا فرنجيًا قط لا تاجرًا ولا محاربًا.

وقال ابن جبير بأن ستة عشر سفن للمسلمين أحرقها الصليبيون الذين استولوا على سفينة حجاج وقافلة في عيذاب. كما ذكر أيضًا أنهم كانوا ينوون مهاجمة المدينة المنورة ونهب قبر النبي محمد.

وأضاف المقريزي إلى أن شائعات انتشرت تزعم بأنهم كانوا سينقلون جثمان النبي محمد إلى الأراضي الصليبية، لجعل المسلمين يحجون إليها. ولحسن حظ صلاح الدين الأيوبي، كان العادل قد نقل السفن الحربية من الفسطاط والإسكندرية إلى البحر الأحمر تحت قيادة حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول المصري، فبدأ بمهاجمة القوات التي هاجمت أيلة وهزمها، ثم سار لقتال من هاجموا عيذاب، فأدركهم في ساحل الحوراء(أملج) ودمر معظم سفنهم، فنزلوا إلى البر محاولين الفرار فهزمهم شر هزيمة. أمر

صلاح الدين بقتل الأسرى الصليبيين البالغ عددهم ١٧٠ مقاتل في عدد من مدن المسلمين.

من وجهة نظر صلاح الدين، كانت الحرب ضد الموصل تسير على ما يرام، لكنه لم ينجح بعد في تحقيق أهدافه وبدأ جيشه يتناقص؛ فقد عاد تقي الدين برجاله إلى حماة، وغادر ناصر الدين محمد بن شيركوه بقواته. شجع ذلك عز الدين وحلفائه على الهجوم. فجمع قواته في حرضم الواقعة على بعد ١٤٠ كيلومتر من حران. وفي بداية أبريل، ودون أن ينتظر ناصر الدين، بدأ صلاح الدين وتقي الدين تقدمهم ضد قوات عز الدين، متوجهين شرقًا إلى رأس العين دون أن يلقوا مقاومة. وبحلول نهاية أبريل، وبعد ثلاثة أيام من القتال، استولى الأيوبيون على آمد. سلم المدينة نور الدين محمد بن قره أرسلان بخزائنها التي بها ٨٠,٠٠٠ شمعة، وبرج كامل مملوء بالسهام و١,٠٤٠,٠٠٠ كتاب. وفي مقابل إعادته حاكمًا للمدينة، أقسم نور الدين الولاء لصلاح الدين الأيوبي، واعدًا إياه بمساعدته في كل حملاته في الحرب ضد الصليبيين وإصلاح الأضرار التي لحقت بالمدينة. وبسقوط آمد، قرر حاكم ماردين التحالف مع صلاح الدين الأيوبي، وهو ما أضعف تحالف عز الدين.

حاول صلاح الدين الحصول على دعم الخليفة الناصر ضد عز الدين من خلال إرسال رسالة للخليفة يطالبه فيها بمرسوم يعطيه الحق في تملّك الموصل والأراضي التابعة لها. حاول صلاح الدين الأيوبي إقناع الخليفة معللاً طلبه بأنه في الوقت الذي فتح مصر واليمن وأعادها تحت راية العباسيين، كان الزنكيون في الموصل يؤيدون صراحة السلاجقة (منافسي

الخلافة)، ولم يخضعوا للخليفة إلا وقت حاجتهم إليه. واتهم أيضًا قوات عز الدين بعرقلة الجهاد ضد الصليبيين، مشيرًا إلى أنهم "لا ينوون القتال فقط، بل ويمنعون الذين يستطيعون ذلك". كما قال صلاح الدين الأيوبي بأنه إنما جاء إلى الشام لقتال الصليبيين وإنهاء بدعة الحشاشين ووضع حد لتخاذل المسلمين. كما وعد أنه إذا أعطيت له الموصل، فسيستولي على القدس والقسطنطينية والكرج وأراضي الموحدين في المغرب، حتى تصبح كلمة الله هي العليا وتطهّر الخلافة العباسية العالم وتتحوّل الكنائس إلى مساجد. وأكد صلاح الدين أن كل هذا من الممكن أن يحدث بمشيئة الله، وبدلاً من طلب الدعم المالي أو العسكري من الخليفة، قال أنه سيغزو أراضي تكريت وداقوق وخوزستان وجزيرة كيش وعمان، وسيعطيها للخليفة.

صلاح الدين الأيوبى ومعركة حطين

صلاح الدين في العقد الخامس من عُمره، عندما شرع بالجهاد ضد الصليبيين.

بعد أن نجح صلاح الدين فى أن يجمع مصر وسوريا وتهامة والعراق فى دولة إسلامية موحدة قوية تحيط بمملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية من الشمال والشرق والجنوب، واطمأن إلى وحدتها وتماسكها، انتقل إلى تحقيق القسم الثاني من مخططه السياسي، وهو محاربة الصليبيين وطردهم من البلاد، وجاءَته الفرصة حين تعرّض أرناط آل شاتيون صاحب الكرك لقافلة غزيرة الأموال كثيرة الرجال فأخذهم عن آخرهم ونهب أموالهم ودوابهم وسلاحهم، فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ويُقبح فعله وغدره ويتوعده إن لم يطلق الأسرى والأموال، فلما رفض أرسل صلاح الدين، الذي كان آنئذ في دمشق، إلى جميع الأطراف باستدعاء العساكر لحربأرناط، وتوجه بنفسه إلى بصرى، ومنها إلى الأردن ونزل بثغر الأقحوان.

في ٩ جمادى الآخرة سنة ٥٧٩ هـ، الموافق فيه ٢٩ سبتمبر سنة ١١٨٣م، عبر صلاح الدين نهر الأردن لمهاجمة بيسان التي وجدها خاوية. وفي اليوم التالي، أضرمت قواته النار في البلدة، وساروا غربًا، ليعترضوا تعزيزات الصليبيين من حصني الكرك والشوبك على طول طريق نابلس وأسروا عددًا منهم. وفي تلك الأثناء، كانت قوة الصليبيين الرئيسية بقيادة غي آل لوزنيان، قرين ملكة القدس سيبيلا أخت بلدوين، قد

تحركت من صفورية إلى العفولة. أرسل صلاح الدين الأيوبي ٥٠٠ مقاتل لمناوشة قوات الصليبيين، وسار بنفسه إلى عين جالوت. وعندما تقدمت القوات الصليبية، والتي كانت أكبر قوة جمعتها المملكة من مواردها الخاصة، ولكنها كانت لا تزال أقل من قوات المسلمين، تراجع الأيوبيون بشكل غير متوقع إلى عين جالوت. رغم وجود بضع الغارات الأيوبية، بما في ذلك الهجمات على زرعين والطيبة وجبل طابور، لم يشارك الصليبيون بكامل قواتهم في معركة العفولة، التي قاد فيها صلاح الدين رجاله عبر النهر منسحبًا ببطء.

ومع ذلك، أثارت المزيد من الهجمات الصليبية غضب صلاح الدين الأيوبي. فقد استمر أرناط آل شاتيون يهاجم القوافل التجارية العائدة للمسلمين وطرق الحج بأسطول في البحر الأحمر، وهو الممر المائي الذي كان من اللازم لصلاح الدين بقائه مفتوحًا. وردًا على ذلك، بنى صلاح الدين أسطولاً من ٣٠ سفينة لمهاجمة بيروت في عام١١٨٢م. هدد رينالد بمهاجمة مدن المسلمين المقدسة مكة والمدينة المنورة، وهو ما رد عليه صلاح الدين بمحاصرة الكرك قلعة أرناط الحصينة مرتين، عامي ١١٨٣و١١٨٤، فردّ رينالد بنهب قافلة حجيج عام ١١٨٥، ووفقًا لمؤرخ القرن الثالث عشر الإفرنجي وليم الصوري، فقد قبض أرناط على أخت صلاح الدين في تلك الغارة على القافلة،وهو ما لم تثبته المصادر المعاصرة، سواءً الإسلامية أو الأوروبية، وذكرت بدلاً من ذلك أن أرناط هاجم القافلة، وأن جند صلاح الدين حموا شقيقته وابنها حتى وصلوا دون أي ضرر.

بعد أن استعصى حصن الكرك المنيع على صلاح الدين أدار وجهه وجهة أخرى وعاود مهاجمة عز الدين مسعود بن مودود الزنكي في نواحي الموصل التي كان قد بدأت جهوده في ضمها سنة ١١٨٢م، إلا أن تحالف عز الدين مع حاكم أذربيجان ومملكة جبال، والذي أرسل جنوده عبر جبال زاغروس عام ١١٨٥م، جعل صلاح الدين يتردد في هجومه. وحينما علم المدافعون عن الموصل، بأن تعزيزات في طريقها إليهم، ارتفعت معنوياتهم وزادوا من جهودهم، وقد تزامن ذلك مع مرض صلاح الدين، لذا ففي شهر مارس من سنة ١١٨٦م، تم التوقيع على معاهدة سلام.

معركة حطين

كان المرض قد اشتد على ملك بيت المقدس بلدوين الرابع، في سنة ١١٨٥م وما لبث أن توفي في ذلك العام بعد أن سمّى ابن شقيقته بلدوين الخامس خلفًا له، لكن الأخير ما لبث أن توفي خلال سنة، فتولّت العرش والدته سيبيلا، التي ما لبثت أن توّجت زوجها الثاني غي آل لوزينيان ملكًا، وكان الأخير قد خُطط له أن يكون وصي العرش بعد بلدوين الرابع، لكن تحالفه مع أرناط وخرقهما للهدنة مع صلاح الدين ومهاجمتهما لقوافل المسلمين التجارية وقوافل الحجاج، الأمر الذي جعل صلاح الدين يُحاصر الكرك، جعلت بلدوين الرابع يعدل عن تسميته خلفًا له بعد مماته. وعندما تولّى غي عرش بيت المقدس ظهرت الانشقاقات بين الصليبيين وتوسعت، فلم يكن عدد من الأمراء راضيًا عن توليه، ومن هؤلاء ريموند الثالث "القمص" صاحب طرابلس، الذي دفعه غيظه إلى

مراسلة صلاح الدين[١٣٩]ومصادقته واتفق معه ألا يحاربه ولا يرفع عليه سيف، فقال له: «أنني أملك طبريا أنزل عليها وأستولي عليها وأنا أتركها لك فتقوى بها على الفرنجة وتضعف قلوبهم». فذهب صلاح الدين ونزل قريبًا من طبريا فسلمها له صاحب طرابلس، وسمع ملك الفرنجة المتوج حديثًا ما حدث، فحشد العامة في البلاد مع عساكر الساحل وسار للقاء صلاح الدين، وانضم إليه صاحب طرابلس ليتستر على فعله.

في يوم السبت ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ، الموافق فيه ٥ يوليو سنة ١١٨٧م، نزل الصليبيون قرون حطين،وكان صلاح الدين قد سبقهم إلى هناك وتمركز جيشه في المنطقة العليا منها حيث نبع المياه، وكانت تجهيزات الفرنجة الحربية الثقيلة هي سبب تأخرهم في الوصول، ولمّا حصل ووصلوا إلى الموقع كانوا هالكين من العطش لدرجة أنهم شربوا الخمر بدلاً من الماء فسكر منهم الكثير، وهاجموا جيش صلاح الدين فقُتل من الفريقين عدد من الجنود، وكان الصليبيون متحمسين في البداية للحصول على الماءفهزموا المسلمين في أول النهار ولكن دارت الدوائر في آخر النهار، فإنقض الأيوبيون على الجيش الصليبي ومزقوا صفوفه، واستمرت المعركة ساعات طويلة، وما أن انقشع غبارها حتى تبيّن مدى الكارثة التي لحقت بالصليبيين، فقد خسروا زهرة شباب جنودهم، وقُتل العديد من الفرسان والضبّاط المخضرمين، ووقع الملك غي آل لوزينيان وأخوه وأرناط صاحب الكرك وغيرهم من كبار الصليبيين بالأسر.

أما ريموند الثالث صاحب طرابلس، فقد تظاهر بالهجوم على المسلمين، فمر بين صفوفهم وذهب ولم يرجع كأنه أنهزم، واتجه إلى مدينة صور ومكث بها.

بعد هذا النصر جلس صلاح الدين في خيمته، وأمر بإحضار الملك غي وأخوه وأرناط، فلمّا مثلوا أمامه قدّم للملك شربة من جلاّب وثلج، فشربها وكان على أشد حال من العطش، ثم ناولها لأرناط، فقال صلاح الدين للترجمان: «إنما ناولتك، ولم آذن لك أن تسقيه، هذا لا عهد له عندي»،وذلك كون العادة السائدة كانت أنه لو شرب الأسير أو أكل من مال من أسرة أمن، وكان صلاح الدين قد نذر أنه لو ظفر بأرناط قتله بعد أن قتل من المسلمين خلقًا كثيرًا. بعد ذلك أمر صلاح الدين بإحضار بعض الطعام للملك غي، وما أن انتهى حتى أمر بإحضار أرناط، وأوقفه بين يديه ثم قال له: «نعم أنا أنوب عن رسول الله في الانتصار لأمته»،ودعاه إلى اعتناق الإسلام، فرفض وقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي محمد، فسلّ صلاح الدين سيفه ودق عنق أرناط، وأمسكه الجنود وأخرجوا جثته ورموها على باب الخيمة، ورآه الملك غي يتخبط في دمائه ويلفظ أنفاسه الأخيرة فخاف وشحب لونه معتقدًا أنه لاحق به،فاستحضره صلاح الدين وطيّب قلبه وقال له:

"أنا أحدثك حديث الأمراء، لا تخاف يا ملك فلن تموت اليوم، بل تحيا ولو بقي في قومك بقية كنت أملكك عليهم وأساعدك بمالي ورجالي طول أيام حياتك. إن سبب ما فعلته به أن الكرك كانت طريق التجار والمسافرين فكان يعتدى على القوافل بظلم وعنف، وكان ملوك المسلمين نور

الدين وغيره يطلبون الصلح معه ليخففوا ضرره على المسلمين، فكان يوافقهم مرة ولا يعتدي على التجار وألف مرة يعتدي. فلما تملّكت وحكمت البلاد أرسلت له وهاديته بمال كثير وخلع.. فحلف لرسولي أنه لن يؤذي المسلمين وسيترك التجار بلا ضرر ويمهد لهم الطريق ولن يعتدي أي واحد من أصحابه عليهم، وبعد الصلح بثلاثة أيام عبرت قافلة قاصدة دمشق فساقها بجمالها ورجالها وأموالها وذهب بها إلى الكرك فأسر رجالها وأخذ الأموال فلما عرفت بأمر نقوضه العهد كتمت الغيظ ونذرت لله أنني متى ظفرت به أذبحه واقطع رقبته، فلا تلومني يا ملك".

ثم استدعى خادمه وسأله أن يحضر شراب فجاء به فأخذه بيده وشرب منه وناوله للملك فشربه وأعطى له ولأصحابه خيمة وجعل عليها حراسًا لحراسته واحتفظ به، وأرسله إلى دمشق أسيرًا، يرافقه القاضي ابن أبي عصرون، حتى تنتهي الحرب وتُفتتح القدس، وأرسل معه أيضًا صليب الصلبوت، وهو الصليب الأعظم عند الصليبيين والذي قيل بأن فيه قطعة من الخشبة التي صُلب عليها المسيح،

وكان يُغلّف بالذهب واللآلئ والجواهر النفيسة، وكان يتقدم الجيش الصليبي على الدوام، وحملوه معهم يوم حطين، وأودع في قلعة دمشق عند وصوله.

صلاح الدين وتحرير الساحل الشامي

رأى صلاح الدين ألا يتوجه مباشرة لفتح القدس بعد انتصار حطين، وإنما رأى أنه من الأسلم أن يسير لفتح مدن الساحل ومن ثم الهجوم على القدس، فرحل طالبًا عكا وكان نزوله عليها يوم الأربعاء، وقاتل الصليبيين بها بكرة يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ، فأخذها وأنقذ من كان بها من أسرى المسلمين، وكانوا أكثر من ٤ آلاف شخص،واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع كونها كانت المرفأ التجاري الرئيسي للصليبيين ونافذتهم على وطنهم الأم في أوروبا. ثم تفرقت الجنود الأيوبية في الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، ففتحوا نابلس وحيفا والناصرة وقيسارية وصفوريةبعد أن خلا معظمها من الرجال إما لمصرعهم على أرض المعركة أو لوقوعهم في الأسر أو لهربهم من أمام الجيش الأيوبي بعد أن قل عددهم. ولمّا استقرت قواعد عكا، قسّم صلاح الدين أموالها بين أهلها، وأبقى بعض القادة الصليبيين في الأسر وأطلق سراح بعض الجنود، ثم سار يطلب قلعة تبنين، فوصلها يوم الأحد في ١١ جمادى الأولى من نفس السنة، فنصب عليها المناجيق وضيّق عليها الحصار، وقاومت حاميتها مقاومة عنيفة قبل أن تستسلم ويدخلها الجيش الأيوبي، ثم ارتحل بعد ذلك قاصدًا صيدا وتسلمها في اليوم التالي لوصوله.

وفي أثناء توجه صلاح الدين لفتح بيروت في سنة ١١٨٧م، لقيه الأمير جمال الدين حجي التنوخي في بلدة خلدة وسار معه لحصار المدينة،

فضرب الاثنان عليها الحصار ودخلوها بعد ٧ أيام، وكافأ صلاح الدين الأمير التنوخي على ولائه له وثبته على إقطاعات آبائه وأجداده وزاد عليها حتى شملت منطقة الغرب كلها، الممتدة من جنوبي بيروت حتى أعالي جبل لبنان، وكذلك فعل مع الأمراء الشهابيين في سهل البقاع، فقد كان هؤلاء يقاتلون الصليبيين طيلة فترة من الزمن انتهت باستيلائهم على حاصبيا وما حولها، فسُرّ صلاح الدين بذلك وولّى الأمير منقذ الشهابي على البلاد التي فتحها. وفي أثناء حصار صلاح الدين لبيروت، كانت فرقة عسكرية أيوبية قد استرجعت جبيل من أيدي الصليبيين، ولمّا فرغ من هذا الجانب رأى أن قصده عسقلان أولى لأن حصارها وفتحها أيسر من حصارصور، فأتى عسقلان وتسلّم في طريقه إليها مواقع كثيرة كالرملة والدراوم، وأقام في عسقلان المناجيق وقاتلها قتالاً شديدًا حتى استسلمت حاميتها، وأقام عليها إلى أن تسلّم أصحابه غزة وبيت جبرين والنطرون بغير قتال، وهكذا كان صلاح الدين قد استرجع أغلب ساحل الشام، ولم يصمد في وجهه غير مدينتيّ طرابلسوصور وقسمًا من إمارة أنطاكية.

فتح القدس

ظل صلاح الدين في عسقلان حتى نظم إدارتها وسلمها إلى أحد مماليكه واسمه علم الدين قيصر، وأعطاه ولاية عسقلان والقطاع الذي حولها ورحل منها وتوجه إلى القدس لفتحها، ووصلها يوم الخميس في ١١ رجب سنة ٥٨٣ هـ، الموافق فيه ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧م، من جهة عين سلوان حتى يكون الماء قريب من جيشه وأمر جنده بمحاصرة المدينة في هيئة دائرية، وصلى المسلمين على الجبل الذي حولها يوم الجمعة، وزحفوا للقتال بعد الصلاة، ولم يكن في المدينة المقدسة قوة كبيرة لحمايتها من الهجوم الأيوبي، حيث لم يزيد عدد الجنود عن ١٤٠٠ جندي، أما الباقون فكانوا من الفقراء والأهالي الذين لا خبرة لديهم في القتال وكانباليان بن بارزان فارس من فرسان الفرنجة الكبار يسكن مدينة القدس ويتولى شؤونها منذ أن غادرها الملك غي، وكان باليان هذا هو صاحب مدينةالرملة، وقاد القتال في ذلك اليوم وانضم إليه الكهنة والشمامسة، وكان ماهرًا في إدارة القتال وتوجيه المقاتلين أمام قوات صلاح الدين، وكان خوفه الأكبر أن يقتل المسلمين كل مسيحيي القدس عند دخولهم كما فعل الصليبيون عندما فتحوا المدينة قبل ما يزيد عن قرن من الزمن، فحث السكان أن يدافعوا عن حياتهم ومقدساتهم حتى الرمق الأخير، وعندما أرسل له صلاح الدين أن يسلم المدينة ويطلب الأمان لم يفعل، وأصر على القتال واستمر في الحرب لمدة ١٤ يومًا.

ولما رأى صلاح الدين أن الحرب ستكون شديدة ولم يقدر على احتلال مدينة القدس، أحضر يوسف البطيط، وهو رجل مسيحي أرثوذكسي مقدسي، انتقل إلى مدينة دمشق وسكن فيها وكان له معرفة بأمراء مسلمين وفرنجة، وكان ممن يعرفهم صلاح الدين، وكان يعرف كذلك أبوه وعمه أسد الدين شيركوه وهم بدمشق في خدمة نور الدين زنكي قبل أن يحكموا مصر،[ولما ملك صلاح الدين مصر وحكمها، جاء إليهم ليعمل معهم فاستخدمه الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين وأعطاه عطايا، وسكنًا في قصر الخليفة في قاعة باب الذهب في القصر الشرقي بالقاهرة، واستخدمه صلاح الدين لمراسلة الفرنجة، وكان يعرف أحوال البلاد وأهلها كما كان يعرف كبار فرسان تلك البلاد، فطلب منه أن يتفق مع المسيحيين الأرثوذكس من عرب وروم يوعدهم بالخير والعفو عنهم إذا لم يساعدوا الفرنجة في القتال وأن يسلموا المدينة لصلاح الدين من الجهة التي يسكنون بها في القدس فيُهلكوا الفرنجة، الذين رفض صلاح الدين أن يعفي عنهم بحال فتح المدينة، حتى هدد باليان بقتل الرهائن المسلمين، والذين يُقدّر عددهم بأربعة الآف مسلم، وتدمير الأماكن الإسلامية المقدسة، أي قبة الصخرة والمسجد القبلي، اللذان يُشكلان المسجد الأقصى، إذا لم يعف صلاح الدين عنهم.

استشار صلاح الدين الأيوبي مجلسه وقبل هذه الشروط، على أن يتم دفع فدية على كل من فيها مقدارها عشرة دنانير من كل رجل وخمسه دنانير من كل امرأة ودينارين عن كل صبي وكل صبية لم يبلغ سن الرشد، فمن أدى ما عليه في المهلة التي قدرها أربعين يومًا، صار حرًا.[١٤٥] ثم

سمح صلاح الدين بعد أن انقضت المهلة لمن لم يستطع الدفع منهم بالمغادرة دون فدية،ولكن تم بيع معظم المقاتلة منهم عبيدًا. دخل صلاح الدين المدينة في ليلة المعراج يوم ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ، الموافق فيه٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م، وسمح لليهود بالعودة للمدينة، وهو ما دفع سكان عسقلان من اليهود لاستيطان القدس. وأغلق صلاح الدين كنيسة القيامة بوجه الفرنجة بعد فتح المدينة، وأمر بترميمالمحراب العمري القديم وحمل منبر مليح من حلب كان الملك نور الدين محمود بن زنكي قد أمر بصنعه ليوضع في المسجد الأقصى متى فُتح بيت المقدس، فأمر صلاح الدين بحمله من حلب ونُصب بالمسجد الأقصى،وأزيل ما هناك من آثار مسيحية منها الصليب الذي رفعه الإفرنج على قبة المسجد، وغُسلت الصخرة المقدسة بعدة أحمال ماء ورد وبُخّرت وفُرشت ورُتّب في المسجد من يقوم بوظائفه وجُعلت به مدرسة للفقهاء الشافعية، ثم أعاد صلاح الدين فتح الكنيسة وقرر على من يرد إليها من الفرنج ضريبة يؤديها.

وقد ابتهج المسلمون ابتهاجًا عظيمًا بعودة القدس إلى ربوع الأراضي الإسلامية والخلافة العباسية، وحضر ناس كثيرون ليسلموا على السلطان ومن هؤلاء الرشيد أبو محمد عبد الرحمن بن بدر بن الحسن بن مفرج النابلسي، الشاعر المشهور، فأنشد صلاح الدين قصيدة طويلة من مائة بيت يمدحه ويُهنئه بالفتح، ومما جاء في القصيدة:

هذا الذي كانت الآمال تَنْتَظِرُ   فَلْيوفِ لله أقوامٌ بما نَذَروا

هذا الفتوحُ الذي جاء الزمانُ به   إليك من هفوات الدهر يعتذرُ

تَجُلّ علياه عن دح يُحيط به ... وصفٌ وإن نظم المدّاح أو نثروا

لقد فتحتَ عَصيّاً من ثُغورهمُ ... لولاك ما هُدَّ من أركانها حَجَرُ

حصار صور وعكا

حصار صور من قبل الجيش الأيوبي سنة ١١٨٧.

كان معظم أمراء الفرنجة وفرسانها يذهبون إلى المدن الحصينة التي ما زالت في أيديهم مثل أنطاكية وصور، وكانت الأخيرة يحكمها ملك من ملوك أوروبا هوكونراد مركيز مونفيراتو، ويقول البعض أنه رومي ابن اخت إمبراطور القسطنطينية. وكانت صور أكثر أهمية من الناحية الإستراتيجية من القدس، لذا كان من المتوقع أن يقوم صلاح الدين بفتحها أولاً، لكنه فضّل استرجاع المدينة المقدسة أولاً ليرفع من معنويات المسلمين قبل التوجه لحصار المدينة المحصنة. وقبل حصار صور توجّه صلاح الدين بجيشه إلى قلعة صفد وحاصرها سبعة شهور، ولمّا نفذ الطعام وجاعت الحامية اضطروا أن يسلموا القلعة له وطلب الأمان، وعندما غادرها جنود الفرنجة وفرسانهم ذهبوا إلى صور وكانت كل قلعة أو حصن أو مدينة تطلب الأمان ويسلمونها إلى صلاح الدين، كان الفرنجة يغادرونها إلى صور فقويت بوجود فرسان الفرنجة فيها، فصمدت في وجه صلاح الدين سنة كاملة، أضف إلى ذلك أن المركيز ظلّ يقوّي ويحمي ويدبر احتياجات المدينة طيلة أيام الحصار، حتى دبّ اليأس إلى فؤاد السلطان، ففك الحصار عنها مؤجلاً تحقيق الفتح إلى فرصة قادمة. وفي سنة ١١٨٨م أطلق صلاح الدين سراح الملكغي آل لوزينيان وأعاده إلى

زوجته سيبيلا، فذهبا ليعيشا في طرابلس، ثم توجها إلى أنطاكية، قبل أن يُقررا الذهاب إلى صور، لكن كونراد رفض السماح لهما بالدخول إلى المدينة كونه لم يعترف بشرعيّة ملكيّة غي.

حصار عكا.

وبعد أن انصرف صلاح الدين عن صفد واصل فتح المدن والقلاع ففتح جبلة واللاذقية وحصون صهيون وبكاس والشغر وسرمينية وبرزية ودرب ساك والكركوكوكب، كما سعى بوهمند الثالث صاحب أنطاكية لمهادنة صلاح الدين لمدة ثمانية أشهر، فقبل صلاح الدين ذلك على أن يطلق بوهمند من عنده من أسرى المسلمين. لما ضجت صور بمن لجأ إليها من الفرنجة، قام بعض رهبانهم وقسسهم بشحن الفرنجة للثأر لفقدان بيت المقدس، فرأوا أن يهاجموا عكا، فجمعوا قواتهم وضربوا عليها حصارًا برياً بحرياً فى ١٥ رجب ٥٨٥ هـ الموافق ٢٨ أغسطس ١١٨٩م استنجدت حامية المدينة بصلاح الدين فأرسل إلى عماله وحلفاؤه يطالبهم بالاسراع إلى نجدة المدينة، فوافاه عسكر الموصل وآمد وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة وحران والرُّها، كما وافاه أخاه الملك العادل أبي بكر بن أيوب في جند مصر والأسطول المصري بقيادة حسام الدين لؤلؤ، فدارت بين الفريقين معارك عظيمة لم يكتب فيها الغلبة لأي من الفريقين.

الحملة الصليبية الثالثة



السلطنة الأيوبية بعد استرجاع بيت المقدس وساحل الشام، وعند وصول الحملة الصليبية الثالثة.

كانت معركة حطين وفتح القدس سببين رئيسيين لخروج الحملة الصليبية الثالثة، حيث حثّ البابا غريغوري الثامن ملوك أوروبا على شن حملة صليبية جديدة لاستعادة بيت المقدس، فكان أول من لبى النداء الإمبراطور الألماني فريدريش بربروسا الإمبراطور الروماني المقدس الذي سار بجيشه برًا عبر المجر ورومانيا حتى بلغ القسطنطينية، والتي كان إمبراطورها إسحق الثاني قد تحالف سرًا مع صلاح الدين، ألاّ يسمح أحدهما لأي قوّات بتهديد أراضي الآخر، إلا أنه لم يقوى على منع قوات فريدريش لكثرة عددهم، لكنه لم يسمح بتزويدهم بالمؤن. راسل فريدريش أبناء سلطان سلاجقة الروم قلج أرسلان الثاني وقد كانوا قد حجروا على أبيهم، للمرور من خلال أراضيهم، فسمحوا له، وأرسل قلج أرسلان الثاني يعتذر لصلاح الدين على عدم قدرته على منع الألمان من المرور من أراضيه، فبلغت الرسل صلاح الدين وهو يحاصر عكا.

رغم ذلك، فقد فشلت حملة فريدريش في الوصول إلى الشرق، لطول المسافة وحلول الشتاء على الجيش المرتحل ومقاومة بعض أمراء المناطق التي مرت بها الحملة للجيش الغازي وقلة المؤن، خاصة بعد امتناع إسحق الثاني إمبراطور الروم عن إمدادهم بالمؤن، إضافة إلى غرق فريدريش بربروسا نفسه في أحد الأنهار بالقرب من أنطاكية، والخلافات التي تبعت وفاته على من يخلفه، وقد أثارت أنباء فشل حملة بربروسا الغبطة في المعسكر المسلم المدافع عن عكا.

لم تتوقف الحملة عند ذلك، بل تصدى لتلك الحملة أيضًا ملكان من أكبر ملوك أوروبا في ذلك الوقت هما ريتشارد الأول "قلب

الأسد" ملك إنگلترا وفيليب أغسطس ملك فرنسا، اللذان مُوِّلاها بفرض ضريبة خاصة عُرفت بعشور صلاح الدين (بالإنگليزية: Saladin tithe؛ وبالفرنسية: Dîme saladine) في إنگلترا وأجزاء من فرنسا، وانضما إلى حصار عكا، التي سقطت في عام ٥٨٧ هـ، الموافق لعام ١١٩١م، أمام القوات التي يقودها ريتشارد، وأُعدم فيها ثلاثة آلاف سجين مسلم منهم نساء وأطفال. ردّ صلاح الدين بقتل كل الفرنجة الذين أسرهم بين ٢٨ أغسطس و ١٠ سبتمبر، وقد كتب بهاء الدين بن شداد "وبينما كنا هناك أحضروا اثنين من الفرنجة الذين تم أسرهم إلى السلطان صلاح الدين، وعلى الفور أمر بقطع رؤوسهم." وفي ١٥ شعبان سنة ٥٨٧ هـ، الموافق فيه ٧ سبتمبر سنة ١١٩١م، اشتبكت جيوش صلاح الدين مع جيوش الصليبيين بقيادة ريتشارد قلب الأسد فيمعركة أرسوف التي انهزم فيها صلاح الدين،إلا أن الصليبيين لم يتمكنوا من التوغل في الداخل وبقوا على الساحل، وبقيت الحرب سجال بين الفريقين، وفشلت كل محاولات الفرنجة لغزو القدس.

لجأ الفريقان بعد ذلك إلى الصلح، وعقدت هدنة في ٢٠ شعبان سنة ٥٨٨ هـ، الموافق فيه ١ سبتمبرسنة ١١٩٢م، لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر تبدأ من ذاك التاريخ، بعد أن أجهدت الحرب الفريقين، التي بموجبها تنحصر مملكة بيت المقدس الصليبية في شريط ساحلي ما بين يافا وصور، وتظل القدس في أيدي المسلمين مع السماح للمسيحيين بالحج إليها ومع ذلك، كانت علاقة صلاح الدين مع ريتشارد يسودها الاحترام المتبادل والشهامة بعيدًا عن التنافس العسكري، فعندما

أصيب ريتشارد بالحمى، عرض صلاح الدين الأيوبي عليه خدمات طبيبه الشخصي، وأرسل إليه فاكهة مثلجة. وفي أرسوف، عندما فقد ريتشارد جواده، أرسل إليه صلاح الدين الأيوبي اثنين محله. كما عرض ريتشارد على صلاح الدين فلسطين موحدة للمسيحيين الأوروبيون والمسلمين عن طريق تزويج أخت ريتشارد الأول بأخو صلاح الدين وأن تكون القدس هدية زفافهما، على أن يكون ما فتحه المسلمون تحت حكم العادل وما بيد الفرنجة تحت حكم أخت ريتشارد، إلا أن الأمر لم يتم. إلا أن الرجلين لم يلتقيا أبدًا وجهًا لوجه وكان التواصل بينهما بالكتابة أو بالرسل.

ولما تم الصلح سار صلاح الدين إلى بيت المقدس وحصّن أسوارها، وأدخل كنيسة صهيون داخل أسوارها، وبنى فيها مدرسة ورباطًا للخيل وبيمارستان، وغير ذلك من المصالح، وقضى بالمدينة شهر رمضان من سنة٥٨٨ هـ، ثم تركها في ٥ شوال متوجهًا إلى دمشق حيث قضى آخر أيامه.

أهم أعمال صلاح الدين الأيوبى للدولة الأيوبية

اهتمام صلاح الدين بتقوية جيوشه:

أخذ صلاح الدين يعمل حال توليّه الوزارة على إعداد جيش أيوبي ليكون نواة لجيش مصري جديد يدافع به عن حكمهم، وعن مصر من الغزو الإفرنجي ولم يْخفَ عليه تدهور وضع الجيش الفاطمي لأنه خبره في أثناء رحلاته الثلاث إلى مصر بين سنة ٥٥٩هـ وسنة ٥٦٤هـ/١١٦٣م – ١١٦٨م وعرفه معرفة جيدة من حيث مصادره البشرية والمالية والحربية ومن حيث تنظيمه وفرقه المبنية على أساس عرقي، مثل السودان والأرمن، والمصريين والديلم والأتراك والعربان وكان يعرف بالتفصيل وضع كل فرقة من هذه الفرق (١٢٩)، وكان القاضي الفاضل قد عمل في إدارة هذه القوات في عهد رزيك بن الصالح وساهم معها في بعض وقائعها الحربية خلال الحملة الفرنجية الشامية الثانية على مصر كما أشرنا سابقاً، وشاهد قادة الفرق المختلفة من هذه القوات وهم يتنافسون في شأن السلطة الأمر الذي أنهك القوات وأضعف مصر إلى حد أصبحت تعجز معه عن الدفاع عن استقلالها، أو حتى عن بقائها وعرف القاضي الفاضل الكثير عن القوات المصرية عن طريق عمله معها في ديوان الجيش وفي ديوان الإنشاء الذي كان يتعامل مع ديوان الجيش ويشرف على العيون والرسل، فألّم بهذه القوات وعرف دخائلها وأطّلع على كل فرقة منها وعلى نيات كل قائد من

[١٢٩] المصدر نفسه ص ١٢٦.

قوّادها، ولم يضنَّ بمعلوماته عنها على صلاح الدين، بل وجهه في تنظيم جيشه الأيوبي وإدارته، وظل طول عمله مع صلاح الدين يشرف على عساكره، ويراقب إعدادها وتنظيمها ومواردها المالية، ويصحبها من مصر إلى الشام لتحارب مع صلاح الدين ومن الشام إلى مصر لتستعد وتتجهز لحملات مقبلة ضد الفرنج وقد أنشأ صلاح الدين في بداية عهده في الوزارة جيشاً كبيراً ازداد عدداً وعّدة بمرور الوقت واتساع عملياته الحربية ضد الفرنج وكان قوام هذا الجيش في مصر الحرس الخاص، والجيش النظامي في مصر، ثم الجيوش الشعبية التي تكّونت من أمراء الإقطاع وجنودهم، ولاسيما في الشام والجزيرة بعد سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤؛ والبدو (١٣٠) ويأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى مفصلاً في الحديث عن الدولة الأيوبية وصلاح الدين.

حماية سلاطين بني أيوب لطريق الحج والحرمين الشريفين :

يرجع الفضل بعد الله إلى عودة السيادة العباسية على الحجاز إلى مساعي السلاجقة لنزع الأماكن المقدسة من هيمنة الدولة الفاطمية الشيعية وفي عهد نور الدين زنكي ظهرت جهوده الميمونة في الإحسان لأهل مكة والمدينة، وبعث العساكر لحفظ المدينة النبوية، وأقطع أمير مكة إقطاعاً، وأقطع أمراء العرب إقطاعات لحفظ الحج فيما بين دمشق والحجاز، وأكمل سور المدينة النبوية، واستخرج لها العين، فدعي له بالحرمين على منبريهما بعد اسم الخليفة العباسي (١٣١)، وثمة معلومة على جانب كبير

[١٣٠] القاضي الفاضل ص ١٢٧.

[١٣١] الذهب المسبوك نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٠٣.

من الأهمية لدارس تاريخ الأسرة الأيوبية ونشأتها، تشير إلى أن تولي مؤسس هذه الأسرة، لإمارة لواء الحج الشامي، إبان خدمتها لنور الدين زنكي، وكان من أهم عوامل استقواء هذه الأسرة الطموحة، فنعرف أن نجم الدين أيوب، كبير البيت الأيوبي، كان قد تولى إمارة الحج الشامي لنور الدين زنكي منذ سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م وقد ورثه في هذا المنصب أخوه أشد الدين شيركوه الذي وصف أنه قد تقدم عند نور الدين زنكي، وبعثه أمير الحاج من دمشق (١٣٢) . وكان شيركوه في حياته قد أنفق من أمواله المبالغ الضخمة، في سبيل إقامة الشعائر الدينية والخيرية بالحرمين هو وصديقه الوزير جمال الدين وزير صاحب الموصل، وأوصى صديقه بأن يدفن في تربة بجوار المسجد النبوي بالمدينة المنورة (١٣٣) ، وقد حرص ملوك بني أيوب على تحقيق هذه الأمنية والوصية، فقاموا بنقل رفاة نجم الدين أيوب وأخيه شيركوه بعد دفنهما بمصر، وأعادوا دفنهما بالمدينة، طبقاً لوصيتهما (١٣٤) واستمرت السيادة العباسية على الحجاز، على يد سلاطين وملوك الدولة الأيوبية، وتبدت مظاهر عودة هذه السيادة في الخطبة للخليفة العباسي بالحرم المكي، قبل أمير مكة، وقبل السلطان الأيوبي صاحب مصر، وملك اليمن من بني أيوب، وفي إرسال التقاليد الخليفتية بالإمارة لكل من أمير مكة والمدينة، صُحبة أمير الحاج العراقي، وكان تقليد أو عزل أمير المدينة ومكة أو أولياء عهدهما يقرأ بجوار

---

[١٣٢] تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص ٢٠٤.
[١٣٣] مرآة الزمان (٢٥٠/٨) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٠٤.
[١٣٤] مرآة الزمان (٢٧٨/٨) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٠٤.

المسجد النبوي (١٣٥)، وإرسال كسوة الكعبة كل سنة بشعار بني العباسي وهو السواد وبُطرُز حمراء تحمل اسم الخليفة العباسي وعبارات دعائية له (١٣٦) ، كما تولى خلفاء بني العباس، عمارة الحرم المكي، والمسجد النبوي. كذلك كان الخليفة العباسي وحده، هو صاحب الحق في رفع لواءه يوم الوقوف بعرفات (١٣٧)، وتأكيداً لإشراف الخلافة العباسية على الحرم المكي، كان أمير الحج العراقي يقوم بنفسه بكسوة الكعبة مع خواصه (١٣٨)، كما كانت خلع الخليفة شعار السواد العباسي، ترسل من بغداد إلى خطيب الحرم المكي، شأنه شأن خطباء البلاد التابعة للخلافة العباسية على حد قول ابن جبير، وذلك كي يلبسها عند صعوده للخطبة الجامعة (١٣٩).

[١٣٥] مرآة الزمان (٥٢٤/٨، ٦١١) تاريخ مصر ص ٢٠٥.
[١٣٦] تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٠٥.
[١٣٧] النجوم الزاهرة (١٠٥/٦) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٠٥.
[١٣٨] تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٠٦، رحلة بن جبير ص ١٥٧ ـ ١٥٨.
[١٣٩] المصدر نفسه ص ٢٠٦.

صلاح الدين الأيوبي خادم الحرمين الشريفين

ورث صلاح الدين الأيوبي عن استاذه نور الدين زنكي، السلطنة العامة، ورسالته في توحيد الجبهة الإسلامية لجهاد الصليبيين، عن طريق إحياء الخلافة العباسية، ونصرة الدعوة السنية، ووث عن استاذه أيضاً مهمة الحجاج وتأمين طريق الحج، فأمر في سنة ٥٧٢هـ بأبطال الغفارة، التي كانت تؤخذ بجدة من المسافرين على طريق البحر الأحمر، وعوض صاحب مكة في كل سنة ثمانية آلاف أردب قمح تحمل إليه في البحر، ويحمل مثلها فتفرق في أهل المارستان بمكة، كما أوقف على الحجاج وعلى الحرمين الأوقاف (١٤٠)، وذلك للصـــرف على مؤنتهم إبـــان أداء الفريضة (١٤١) ، كما أقطع أمير مكة الإقطاعات بصعيد مصر وباليمن (١٤٢)، وأيضاً أوقف على أمير المدينة الأمير جماز وأولاده أوقافاً بصعيد مصر، لم تذكرها المصـــادر الأيوبية وإن أكدتها وثائق المحكمة الشرعية، المحفوظة اليوم بسجلات، مصلحة الشهر العقاري (١٤٣)؛ وقد شفع صلاح الدين ذلك برفع جميع المكوس، وهي ضرائب غير شرعية كانت تجبى من التجار، عن الحجاج، فتسهل سبيل الحج بعد أن كاد أن ينقطع، ولم يعد في استطاعت الحجاج أداء فريضة الحج (١٤٤) ، وكل هذه الأيادي البيضاء التي أسدها صلاح الدين لحجاج بيت الله الحرام جعلت منه، حامي حمى

---

[١٤٠] مرآة الزمان (٣٣٨/٨) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٠٧.
[١٤١] تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٠٧ رحلة ابن جبير ص ٣٠ - ٣١.
[١٤٢] المصدر نفسه ص ٢٠٧.
[١٤٣] المصدر نفسه ص ٢٠٨.
[١٤٤] المصدر نفسه ص ٢٠٨.

الحرمين الشريفين، وهو مظهر من مظاهر الزعامة السياسية في العالم الإسلامي كله (١٤٥).

وقد تأثر العالم الإسلامي بجهود صلاح الدين ولذلك عندما يذكر صلاح الدين بالدعاء على منابر الحرمين بعد الخليفة العباسي وأمير مكة، تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان، وإذا أحب الله يوماً عبده، ألقى عليه محبة الناس، وحق ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم، وحسن النظر لهم، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم (١٤٦) ، ويقول ابن جبير بعد ذكره لدعاء الخطيب لصلاح الدين : أنه ذي المآثر الشهيرة، والمناقب الشريفة، فإذا انتهى ذكره بالدعاء، ارتفعت أصوات الطائفتين بالتأمين، بألسنة تمدها القلوب الخالصة والنيات الصادقة، وتخفق الألسنة بذلك خفقاً، يذيب القلوب خشوعاً، لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل، وألقى عليه من محبة الناس، وعباد الله شهدائه في أرضه (١٤٧) . يقول ابن جبير: أعلمنا بأن كتابه (صلاح الدين) وصل إلى الأمير مكثر، وأهم فصوله، التوجيه بالحاج والتأكيد في مبرتهم وتأنيسهم، ورفع أيدى الاعتداء عنهم وإلا يعاز في ذلك إلى الخدام والاتباع. وقال : إنما نحن وأنتم متقلبون في بركة الحاج، فتأمل هذا المنزع الشريف والمقصد الكريم. وإحسان الله يتضاعف إلى من أحسن إلى عباده وأعتناؤه موصول لمن جعل همه الاعتناء بهم، والله عز وجل كفيل بجزاء المحسنين (١٤٨) . والواقع أن

---

[١٤٥] المصدر نفسه ص ٢٠٩.
[١٤٦] رحلة ابن جبير ص ٧٣ تاريخ مصر الإسلامية ص ٢١٠.
[١٤٧] المصدر نفسه ص ٨٠ تاريخ مصر الإسلامية ص ٢١٠.
[١٤٨] رحلة ابن جبير ص ٧٤.

صلاح الدين لم يدخر وسعاً لاستمرار تأمين طريق الحج بحيث جعل هذا الأمر هجيراه، ودام على مكاتبة أمير مكة يوصيه برعاية الحجاج عند وصولهم إلى الحرم المكي (١٤٩) ، كما كاتب أمير برقة من قبله، يوصيه بحماية الحجاج المغاربة والأندلسيين المارين بولايته (١٥٠) ، كما حرص على تبادل السفارات الودية مع أمير المدينة النبوية وتعظيم رسوله والاعتزاز بهداياه، لكونها من قبل أمير المدينة النبوية الشريفة (١٥١) .

حماية صلاح الدين لطريق الحج البري لحجاج مصر والمغرب، والأندلس:

أدرك الصليبيون خطورة فريضة الحج، كركن أساسي من أركان الإسلام يحقق للمسلمين الوحدة الروحية، ويوثق بينهم روابط اجتماعية وفكرية كفيلة بتعضيد شعورهم بالولاء إلى أمة واحدة، وكيان اجتماعي واحد؛ فعمدوا أحياناً إلى مهاجمة قوافل الحج والتجارة المصرية، المارة عبر صحراء سيناء، وفي طريق الحجاج الشهير ونهبها (١٥٢) ، مما أدى إلى تعطيل الطريق البري للحجاج، الوافدين من الأندلس والمغرب ومصر، واضطرارهم إلى سلوك طريق طويل يبدأ من الإسكندرية إلى الفسطاط، إلى مدينة قوص بصعيد مصر ثم منها يخترق الحجاج صحراء عيذاب، حتى يصلوا إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر، ومنها يركبون السفن الصغيرة

---

[١٤٩] تاريخ مصر الإسلامية ص ٢١٠.
[١٥٠] المصدر نفسه ص ٢١٠.
[١٥١] صبح الأعشى (٥٩/١ – ٦١) تاريخ مصر ص ٢١٠.
[١٥٢] مرآة الزمان (٤١٥/٨ إلى ٤١٦).

المعروفة بـــ "الجلاب" حتى ميناء جدة؛ وكانت هذه الرحلة طويلة شاقة عانى منها الحجاج الأمرّين (١٥٣) ، وكان قطع الصليبيين لطريق الحج البري عبر سيناء، قد تم لهم بعد استيلائهم على حصن الكرك؛ مما جعل استرداد هذا الحصن من أهم أهــداف نور الدين زنكي (١٥٤)

ثم صلاح الدين الأيوبي حين كان نائبه بمصر، قبل استقلاله بالسلطنة؛ لذلك عمد نور الدين إلى محاصرة الكرك حصاراً مزدوجاً من ناحية الشام ومن ناحية مصر في نفس الوقت، وكاد يتم له (١٥٥) استرداده وحين استقرت السلطنة لصلاح الدين، جعل الكرك هدفاً لأول غزوة من مغازيه للفرنج ليصل طريق القوافل والتجارة عبر سيناء، بين مصر والشام، ويؤمن طريق الحج المصري البري بعد انقطاعه ولا شك أن حملة أرناط البحرية على البحر الأحمر ومحاولتها الوصول إلى الأراضي الحجارية، واختطاف جثمان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، كانت على علم تام بأهمية حج المسلمين إلى الأراضي الحجازية، وزيارة المدينة النبوية والمسجد النبوي الشريف. ولم يقصر لؤلؤ قائد الأسطول المصري في أسر هؤلاء الفرنج، وإدخالهم إلى القاهرة في هيئة مزرية، وعلى صورة من الذلة والمهانة وصفها لنا ابن جبير؛ ثم أرسل لؤلؤ بعض هؤلاء الأسرى إلى المدينة المنورة، حيث ذبحوا ذبحاً(١٥٦)، فلا غرو أن لقب صلاح الدين بـــ "خادم الحرمين الشريفين" و "ومنقذ بيت المقدس من أيدي

---

[١٥٣] رحلة ابن جبير ص ٣٨ ـ ٥٣.
[١٥٤] الباهر ص ١٥٨ تاريخ مصر الإسلامية ص ٢١٢.
[١٥٥] تاريخ مصر الإسلامية ص ٢١٢.
[١٥٦] مفرج الكروب (١٢٧/٢ – ١٣٢).

المشركين " (١٥٧)؛ وليس أدل على الأهمية العظمى التي أولاها العالم الإسلامي، لتأمين طريق الحجاج المسلمين إلى مكة وحرص الأيوبيين على إنجازها مما صرح به العماد الأصفهاني مؤرخ صلاح الدين، من أن تأمين طريق الحج إلى مكة من أهم دوافع صلاح الدين، لفتح بيت المقدس واسترداده من الصليبيين (١٥٨).

٣- الإشراف المباشر لصلاح الدين الأيوبى على موسم الحج :

داوم ملوك بني أيوب، على حماية طريق الحج وتأمينه، وحماية لواء الحج العراقي، الممثل لسيادة الخليفة الروحية على العالم الإسلامي، وكان هذا عادة ما يكون من حظ أيوبي اليمن وذلك حتى في حياة صلاح الدين، فكان يخطب لهم بالحرمين بعد صلاح الدين سلطان مصر (١٥٩) ، ففي سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م وصل سيف الإسلام طشتكين ملك اليمن الأيوبي بنفسه إلى الكعبة، ليمنع الآذان الشيعي بها بحي على خير العمل، وليمنع العبيد الموالين لأمير مكة الذين يأخذون الحجاج؛ وطلب مفتاح الكعبة من أمير مكة، ليكون هو الحامي للحرم المكي من الناحية الفعلية؛ وذلك بعد أن حاول أمير مكة إغلاق باب الكعبة، وإعطاء مفتاحه لسدنته من بني شيبة، الذين ذكر الرسول، أنه سيبقى في أيديهم إلى يوم الدين، حتى يرغم طشتكين على العودة دون طلب مفتاح الكعبة، فهدد طشتكين بأخذه قصراً، وهنا أذعن أمير مكة، وسلم المفتاح لطشتكين، الذي سلمه بدوره لبني

[١٥٧] النوادر السلطانية نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٢١٣.
[١٥٨] الفتح للعماد ص ١٩١ تاريخ مصر الإسلامية ص ٢١٣.
[١٥٩] رحلة ابن جبير ص ٨٠.

شيبة (١٦٠) ومما يؤكد اهتمام سلاطين بني أيوب بموسم الحج ما ذكره مؤرخو سيرة صلاح الدين من استحداثه رسوماً خاصة باستقبال موكب الحج الشامي، وذلك خلال إقامته بدمشق فكان صلاح الدين يركب ركوباً عسكرياً، مرتدياً الزي العسكري الكامل، ويخرج في احتفال عام، ويقطع به شوارع دمشق، سالكاً طرقاً محددة (١٦١)

وإذا كان المؤرخون قد لاحظوا، أن أحداً من سلاطين مصر الأيوبية، لم يحج بنفسه لإنشغالهم الدائم بجهاد الصليبيين، فقد حج من أيوبي اليمن الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين، وفاتح اليمن، وأول ملوكها (١٦٢)؛ ثم الملك المسعود المعروف باقسيس، ابن الملك الكامل سلطان مصر (١٦٣) ، وحج من أيوبي الشام، الملك المعظم عيسى ابن العادل أبي بكر، صاحب دمشق، والملك الناصر داود بن المعظم عيسى صاحب الكرك (١٦٤) ، لقد حاز الأيوبيون منذ عصر صلاح الدين، شرف حماية فريضة الحج والإشراف على الحرمين الشريفين وتعضيد النفوذ السياسي لأمير لواء الحج العراقي على بلاد الحجاز، كما أصبحت السلطنة الأيوبية هي حامية الدعوة العباسية والعاملة على نشر دعوتها في جميع ديار الإسلام، سواء في ممتلكات الدولة الفاطمية في نفوذ دولة الموحدين بالمغرب، وفوق ذلك في البلاد الإسلامية بالشام التي يتم استردادها من

---

[١٦٠] مرآة الزمان (٣٨٨/٨) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢١٣.
[١٦١] النوادر السلطانية نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٢٦.
[١٦٢] الذهب المسبوك ص ٧٠ – ٧٣، تاريخ مصر ص ٢٢٧.
[١٦٣] تاريخ مصر ص ٢٢٧.
[١٦٤] الذهب المسبوك ص ٧٦ -٧٩.

الصليبيين، ولا ريب أن تفرد سلاطين بني أيوب بالنهوض بأعباء الدعوة العباسية، وحماية الخليفة العباسي، وإلزام ملوك الأطراف إظهار الطاعة والتبعية له قد أمد السلطنة الأيوبية بسند شرعي، جعلها تتصدر الزعامة السياسية للعالم الإسلامي (١٦٥) والجدير بالملاحظة أن أول السلاطين السنيين الذين اضطلعوا بحماية فريضة الحج، قبل نور الدين زنكي وتلامذته سلاطين بني أيوب، كان السلطان محمود الغزنوى أول السلاطين السنيين وأقدمهم ظهور في تاريخ المشرق الإسلامي (١٦٦) ، ثم ورثه السلاجقة، فالسلطان ملكشاه السلجوقي، كان أول من استن وسائل حماية هذه الفريضة لمن بعده من السلاطين، فبنى أحواض الماء على طريق الحجاز، ورفع المكوس ورسوم الحفاوة عن طريق الحج، وأقطع أمراء الحرمين نظير ذلك الإقطاعات والأموال، وكانوا يأخذون قبل ذلك من كل حاج سبعة دنانير ذهبية، وأنعم كذلك على عرب البادية وعلى مجاوري الكعبة بالإنعامات الطائلة (١٦٧) .

---

[١٦٥] تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٣٢.
[١٦٦] تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٣٢.
[١٦٧] المصدر نفسه ص ٢٣٣.

محاربة الأيوبيين للتشيع

في مصر والشام واليمن:

ليس من السهل اليسير أن يقتلع مذهب من المذاهب بمجرد تغير النظام السياسي في بلد من البلاد، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة وإلى تدبير ليست من تدابير القوة والبطش فحسب، لذلك فالملاحظ أن صلاح الدين قد استخدم وسائل وأساليب عديدة في سبيل القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر جاءت بعض هذه الأساليب تتسم بالشدة والعنف والحسم الفوري المباشر، والبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج، واستخدم بعضها القّوى العسكرية، في حين نهج البعض الآخر سبيل الدعوة والتعليم والإقناع، والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية والدينينة الخيرية وما يوقف عليها من أوقاف للصرف عليها (١٦٨) وكان للقاضي الفاضل دور بارز في رسم هذه الاستراتيجية، وقد تحدثت عن هذه الوسائل عند حديثنا عن زوال الدولة الفاطمية والتي كان من أهم أسبابها؛ إذلال الخليفة الفاطمي العاضد، ووضعه من مكانته وهيبة قصر الدولة الفاطمية، وقطع الجمعة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمي به، وإتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية، وألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين، ومحو رسوم الفاطمية وعملاتهم، والحفاظ على أفراد البيت الفاطمي وإضعاف عاصمة الدولة الفاطمية، وأحياء قضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي، والاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام

---

[١٦٨] المصدر نفسه ص ١٨١.

واليمن (١٦٩) ويبدوا أن الشيعة وأنصار الفاطميين بمصر، قد فروا إلى صعيد مصر، والتفوا حول أحد أمراء العرب المتحمسين للدولة الفاطمية، كان يلقب كنز الدولة إلا أن صلاح الدين بعث أخاه الملك العادل، على جيش، استطاع القضاء على هذه (١٧٠) الفتنة، وكانت الدولة الأيوبية تتصدى بحزم، لكل المحاولات الفاطمية لإرجاع مصر إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي واستمر الأيوبيون في الانتصار للعقيدة السنية وإبادة التراث الشيعي الرافضي، وتتبعوا اتباعه في القاهرة والصعيد، حتى لم يجسر أحد على التظاهر بمذهبها، فانقرضت دعوتها من مصر

واستمروا في ملاحقة اتباع الدعوة في الشام واليمن حتى استطاعوا القضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر واليمن والشام، واستكملوا ما بدأه الغزنويون والسلاجقة والزنكيون في محاربة الدعوة الشيعية الإسماعيلية ونشر الدعوة السنية في إيران والشام ولقد أدركت الإسماعيلية أن دعوتهم لم تصب طول تاريخها على يد السلاطين السنيين مثل الغزنويين والسلاجقة بمثل النكبة التي نكبوا بها بسقوط الدولة الفاطمية وهي أعظم دولة شيعية قامت في التاريخ الإسلامي استحوذت الخلافة وكادت تضم العالم الإسلامي، كله تحت لوائها حين خطب لها ببغداد سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨ فلا غرو أن نظر الشيعة الإسماعيلية كلهم إلى صلاح الدين على أساس أنه هو الذي أزال دولتهم الكبرى من مصر ولهذا فالأقلام الشيعية الرافضية عبر التاريخ لا تكل ولا تمل في تشويه سيرة الناصر صلاح الدين الأيوبي. ولقد ظل التشيع

[١٦٩] المصدر نفسه ص ٥٣ إلى ٧٧.
[١٧٠] تاريخ مصر الإسلامية ص ٧٥.

في مصر يضعف شيئاً فشيئاً، حتى كاد يمحى منها، وأصبحت مصر تدين بمذهب أهل السنة والجماعة.

العوامل التي ساعدت الأيوبيين على حركة الإحياء السني

من العوامل التي ساعدت على نجاح الأيوبيين في حركة الإحياء السني عوامل متعددة منها، لم يكن المذهب الشيعي الإسماعيلي راسخ القدم، وكان للمصريين تجاهه موقفان، الأول: موقف الإعجاب بأصحاب هذا المذهب نتيجة ما بذلوه من جهود في الدعوة إلى مذهبهم، كان من بينهم : الإكثار في الاحتفالات والدعوات والولائم، والسخاء في منح الهدايا والأعطيات، ومظاهر النزف والبذخ التي كانت تحيط بهم في شتى مناشط الحياة ومظاهر الأبهة والعظمة التي كان يحرصــون دائماً على الظهور بها (١٧١) والموقف الثاني : موقف من قبل دعوتهم وانخرط في سلكها ومعظم هؤلاء دخلوا في الدعوة إما طمعاً في المال أو الجاه والمنصب وإما خوفاً من التنكيل والعقاب وكلا الفريقين لم يعتنق المذهب عن عقيدة وإيمان. وقد سلك الفاطميون طريق الترغيب والترهيب في الدعوة إلى مذهبهم ضمن ما سلكوا من الأساليب والوسائل: فيعقوب بن كلس لما تولى الوزارة للعزيز رتب في داره العلماء وأجرى لجميعهم الأرزاق (١٧٢) وألزم الفاطميون جميع الموظفين – بعد فترة من استقرارهم في مصر – بأن يعتنقوا مذهب الدولة، فأصبح الحفاظ على المنصب أو الترقي في سلكه يتطلب التظاهر باعتناق عقيدتهم، ويلوح لنا أن الرغبة في الحصول على مناصب الدولة

[١٧١] تاريخ التربية الإسلامية ص ٤١٢ ـ ٤١٣.
[١٧٢] المواعظ والاعتبار (٣٤١/٢) التاريخ السياسي والفكري ص ٢٥٤.

هي التي دفعت بفريق من السنيين إلى التحول إلى المذهب الشيعي (١٧٣) ، أما مواقف الإرهاب التي اتبعها الفاطميون لفرض المذهب على الناس فكثيرة :ففي عـــام ٣٨١هـ/٩٩١هـ ضرب رجل بمصر وطيف به في المدينة، لأنه وجد عنده موطأ مالك (١٧٤)، واضطهد السنة في عهد الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م وألزموا بكتابة سب الصحابة على دورهم، فانضاعوا للأمر مكرهين (١٧٥) ، وترتب على هذه الموجة من الاضطهاد في عهد الحاكم أن الناس سارعوا إلى الدخول في الدعوة خوفاً، فجلس لهم قاضي القضاة ... فقدموا من سائر النواحي والضياع وازدحم الناس .. فمات عدة من الرجال والنساء (١٧٦) وفي عهد الظاهر كان نفوذ المالكية ما يزال قويا، فاضطر الخليفة إلى إخراج فقهائهم من مصر في عام ٤١٦هـ/١٠٢٥م وأمر الدعاة أن يحفظوا الناس كتاب دعائم الإسلام في أصول العقيدة الإسماعيلية وغيره من كتبهم وجعل لمن يحفظ ذلك مالاً (١٧٧) ومن هذا، يتضح لنا أن هذا المذهب لم يقم على دعائم راسخة في مصر، ولذلك عندما جاء صلاح الدين، وأنشأ المدارس السنية، وفوض القضاء للشافعية، تم اتبع ذلك بإسقاط الخلافة الفاطمية استعاد الشافعية والمالكية نفوذهم في مصر واختفى مذهب الشيعة الإسماعيلية والإمامية حتى فقد من أرض مصر كلها (١٧٨) : ولله الحمد والمنة، ولا يزال

---

[١٧٣] تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ص ٢١٨.
[١٧٤] المواعظ والاعتبار (٣٤١/٢) التاريخ السياسي والفكري ص ٢٥٤.
[١٧٥] المواعظ والاعتبار (٣٤١/٢) التاريخ السياسي والفكري ص ٢٥٤.
[١٧٦] المواعظ والاعتبار (٣٤١/٢) التاريخ السياسي ص ٢٥٤.
[١٧٧] المصدر نفسه (٣٤١/٢ ـ ٣٤٢).
[١٧٨] المصدر السابق (٣٤٣/٢) التاريخ السياسي ص ٢٥٥.

الروافض يسعون لإيجاد موطن قدم في مصر الحبيبة العزيزة إلا أن حب المصريين الأبطال لدينهم العزيز، وثباتهم المستميت على مر العصور على ثوابته من عقيدة سنية صحيحة، وفهم سليم لكتاب الله، ومحبة صادقة لسنة رسول الله، واقتداء رشيد بهدي الخلافة الراشدة جعلت محاولات الشيعة تضيع في مهب الرياح ولقد كانت المدارس السنية تعين الأمة على التمسك بالكتاب والسنة وتحذرها من البدع والابتداع، وتذكرها بما ثبت في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في النهي عن البدع والتحذير منها، منها كتلك الآيات المصرحة بإطاعة الله ورسوله (١٧٩) قال تعالى: " قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنمّا عليه ما حُمّل وعليكم ما حُملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين" (النور، آية : ٥٤) وقوله تعالى : " فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يُصيبهم عذاب أليم" (النور:٦٣).

ومما ساعد الأيوبيين على تحقيق أهدافهم : - أيضاً - في مصر أنها أصبحت في عهدهم منطقة جذب ونشاط لعلماء السنة على اختلاف مذاهبهم، فأسهموا إسهاماً رائعاً في العودة بمصر إلى رحاب السنة، وذلك عن طريق التدريس في المدارس التي أنشئت، أو عن طريق الوعظ أو تأليف الكتب التي تنتصر للسنة، وظلت هذه الجهود مستمرة تلاحق الجيوب المتبقية للشيعة الإسماعيلية في مصر، وكان معظم العلماء الذين شاركوا الأيوبيين في جهودهم على مستوى المسؤولية التي القيت على عاتقهم: علماً وخلقاً وديانة، كما كان للكثير منهم مشاركة في الحياة السياسية

[١٧٩] تحذير المسلمين من الابتداع والبدع في الدين ص ٢٥.

الاجتماعية، كالقاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وبهاء الدين بن شداد، وشرف الدين بن أبي عصرون، والعز بن عبد السلام، بل كان لبعضهم مشاركة فعالة في ميادين الحرب والجهاد، كالفقيه : عيسى الهكاري، وكان كثير منهم على قدر كبير من الشجاعة في مواجهة الحكام، والنصح لهم، فكانوا نماذج رائعة لعامة الناس، ومن ثم فإن تأثيرهم فيهم كان قوياً مؤثراً (١٨٠) كما أن كثيراً من الأيوبيين كانوا علماء وأسهموا في التمكين للمذهب السني – سيأتي بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى.

[١٨٠] التاريخ السياسي والفكري ص ٢٥٥ ، ٢٥٦.

مضامين تربوية في توجهات صلاح الدين

من هذه المضامين التي نلمسها في توجيهات صلاح الدين في رسائله كقائد سياسي وزعيم إسلامي الآتي :

١- التدين بطاعة ولي الأمر: يقول في صدد الحديث عن طاعته للخليفة العباسي: ونحن لا نتدين إلا بطاعة الإمام ولا نرى ذلك إلا من أركان الإسلام ويقول : وقد عرف ما فضلنا الله تعالى به عليهما في نصر الدولة وقطع من كان ينازع رداؤها (١٨١)

٢- تصفية الرموز البدعية من منابر الدعوة :

ويقول حول تطهير المنابر من دعاة الشيعة : وتطهير المنابر من رجس الإدعياء ولم نفعل ما فعلنا لأجل الدنيا، فلا معنى للاعتداد بما الجزاء عنه بالحسنى فتوقع في العقبى غير أن التحدث بنعم الله واجب (١٨٢).

٣- النهي عن التعصب للمذاهب : حيث قال في رسالة إلى أخيه العادل الذي كان نائباً عنه في مصر وقد حصل بعض الشغب من بعض الأفراد : انتهى إلينا بالديار المصرية والحضرة العلية أن جماعة من الفقهاء، قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف وبسطوا ألسنتهم بالمنكر من القول غير المعروف وأنشأوا من العصبية ما أطاعوا فيه القوى البغيضة وأحيوا بها ما أماته الله من أصل حمية الجاهلية والله سبحانه يقول وكفى بقوله

[١٨١] مضمار الحقائق ص ٦٢ – ٦٥ أثر جهود صلاح الدين التربوية في تغير واقع المجتمع المصري ص ٨٢.
[١٨٢] أثر جهود صلاح الدين التربوية ص ٨٣.

حجة على من كان سميعاً مطيعاً (واعتصموا بحبل الله جميعاً) "آل عمران، آية : ١٠٣". ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف بأهل الوفاق إلا أن يقال أحسنها وما علمنا أن في ذلك نية تنجد ولا مصلحة توجد وليس يسع الخلف ما وسع السلف من الأدب، وليعلم العبد أن يكتب كتاباً إلى ربه، فليفكر فيما كتب وإلى من كتب (١٨٣) .

٤- الحث على فضيلة العدل والإحسان للرعية: وكان يحرص على توجيهه ولاته بقوله: فليعدل في الرعية الذين هم عنده ودائع ليجاوز بهم درجة العدل إلى إحسان الضائع فإذا أسند هذا الأمر إلى ولاته، فليكونوا نقاة لا يجد الهوى عليهم سبيلاً ولا يجد الشيطان عندهم مقيلاً وإذا حملوا ثقلاً لا يجدون حمله ثقيلا (١٨٤) ، حيث يقول : وقد فشا في هذا الزمن أخذ الرشوة وهي محق أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنبذه ونهى عن أخذه وعن الرغبة في تداوله وهو كأخذ الربا الذي قرنت اللعنة بمؤلكه وآكله (١٨٥) .

٥- الاهتمام بأمر القضاء : حيث يقول : وأما القضاة الذين هم للشريعة أوتاد ولا مضاء حكامها أجناد ولحفظ علومها كنوز لا يتطرق إليها النفاذ فينبغي أن يعول فيهم على الواحد دون الاثنين وأن يستعان بهم في الفصل بذي الأيدي وفي اليقظة بذي اليدين وأمر الحكام لا يتولاه من سأله

[١٨٣] كتاب الروضتين (١٧٨/٢).
[١٨٤] صبح الأعشى القلقشندي (١٤٤/٣ – ١٤٨).
[١٨٥] المرجع السابق (١٤٨/١٤٤/٣) أثر جهود صلاح الدين ص ٨٤.

وإنما يتولاه من غفل عنه وأغفله (١٨٦) لقد حرص صلاح الدين على العودة إلى الأصول المتمثلة بالكتاب والسنة، وحافظ على هذه الأصول من خلال الجهود وذلك بتصفية البدع والمخالفات الشرعية وقام بصيانة المناهج وعمل على وحدتها، ونشر مبدأ تكافوء الفرص التعليمية وربط الأمة بواقعها من خلال عقيدتها الصحيحة فأنطلقت لتحقيق الانتصارات العظيمة والرائعة: من تحرير البيت المقدس وغيرها من الفتوحات.

[١٨٦] المصدر نفسه.

مكانة العلماء والفقهاء

عند صلاح الدين الأيوبي

استوعب صلاح الدين الأيوبي أن من أسباب تحقيق الانتصار ضد المد الشيعي الباطني والغزو الصليبي وجود القيادة الربانية، فهي التي تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية، فهم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكر، فصلاح الدين الأيوبي يعرف أن تحرير البلدان وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكريا، فحسب، بل أنه أوسع بذلك بكثير إنه مواجهة المذهب الشيعي الرافضي الباطني والذي كان خطر داخلياً يهدد عقيدة الأمة وسلامة دينها والصراع الحضاري مع الغرب الأوروبي النصراني وإنه بدون تأصيل "الذات العقائدية" للأمة المسلمة فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمالاً جزئية موقوته معرضة دوماً للمد والجزر وللتغيير والتبّدل كما يحدث دائماً وما يقتضيه "الموقف" هذا، ليس مجر انتصار خارجي في معركة أو استرداد حصن، إنما بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تتفتت وتضيع وحينذاك سوف يتحول كل عنصر عسكري أو كسب سياسي إلى إنجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتل قوة وأصالة وتماسكاً لا مجرد تكديس شيء لا بشده الرباط تكديس كمي يثبت للضربة والضربتين، ولكنه في الثالثة أو الرابعة ينهار – فتذهب مع انهياره

هدراً جهود السنين الطوال وعرفها (١٨٧) فالنشاط العلمي وفي عهد صلاح الدين والاهتمام بالعلماء في حقيقته امتداد طبيعي لعهد نور الدين محمود، ولم يكن النشاط العلمي أبداً ترفاً فكرياً، لا إفرازاً تقليداً لأجهزة الدولة ولكنه تصميم هادف يسعى إلى عملية التأصيل العقائدي وقد كان الأيوبيون يهتمون بالعلماء وأسهموا في حركة التمكين للمذهب السني، فقد كان صلاح الدين الأيوبي : قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم، وأكابر الفقهاء، وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً وإن لم يكن بعبارة الفقهاء (١٨٨)

وكان يحرص على أن يختلي ببضع المقربين إليه من العلماء فيقرأ عليه شيئاً من الحديث أو الفقه، ويشارك الفقهاء في مجلس القضاء (١٨٩) ، وقد مر بنا في مناسبات عدة حرصه على سماع الحديث الشريف، وسعيه إلى كبار المحدثين ليأخذ عنهم وحرص صلاح الدين على أن يشب أبناؤه على احترام العلم والعلماء، فكان يصطحبهم معه إلى مجالس العلم، ويأخذهم بدراسة بعض الكتب الدينية، فشاؤا محبين للعلم مكرمين لأهله (١٩٠) ، وقد احتفظ صلاح الدين بعلماء العهد الزنكي وأكرمهم وتعاون معهم وكان الوزراء والأمراء في دولته من كبار العلماء

---

[١٨٧] عصر الدولة الزنكية للصَّلاَّبي ، ص ٢٤٩ نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٢٤٩.

[١٨٨] سيرة صلاح الدين لابن شداد ص ٢٥٦.

[١٨٩] سيرة صلاح الدين ص ١٣ ، ٢٨.

[١٩٠] التاريخ السياسي والفكري ص ٢٥٦.

ومن أشهرهم وزيره وكاتبه ومستشاره القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي الذي قال صلاح الدين عنه : لم أفتح البلاد بسيفي وإنما برأي القاضي الفاضل. ولقد كان القاضي الفاضل يجمع إلى حنكته السياسية ورعاً فائقاً، فكان كثير الصيام والصلاة وقراءة القرآن. وكان متواضعاً يكثر عيادة المرضى والإحسان للفقراء (١٩١) وإليك ترجمة أهم العلماء ودورهم السياسي والعلمي والجهادي والتربوي في عهد صلاح الدين:

[١٩١] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٢.

مرض صلاح الدين الأيوبي ووفاته

كانت المواجهة مع الملك ريتشارد ومعاهدة الرملة آخر أعمال صلاح الدين، إذ أنه بعد وقت قصير من رحيل ريتشارد، مرض صلاح الدين بالحمى الصفراوية يوم السبت في ٢٠ فبراير سنة ١١٩٣م، الموافق فيه ١٦ صفر سنة ٥٨٩ هـ، وأصابه أرق فلم ينم الليل إلا قليلاً، وأخذ المرض يشتد ويزيد، حتى قال طبيبه الخاص، أن أجل السلطان أصبح قاب قوسين أو أدنى، واستمر المرض يشتد حتى انتهى إلى غاية الضعف، وبعد تسعة أيام حدثت له غشية وامتنع من تناول المشروب، ولمّا كان اليوم العاشر حُقن دفعتين، وحصل له من الحقن بعض الراحة، لكنه عاد واشتد عليه المرض حتى يأس الأطباء من حاله. توفي صلاح الدين فجر يوم الأربعاء في ٤ مارس سنة ١١٩٣م، الموافق فيه ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ، فأفجع موته المسلمين عمومًا والدمشقيين خصوصًا، وبكاه الكثيرون عند تشييعه وقيل إن العاقل حتى كان ليُخيل له أن الدنيا كلها تصيح صوتًا واحدًا من شدة البكاء، وغشي الناس ما شغلهم عن الصلاة عليه، وتأسف الناس عليه حتى الفرنج لما كان من صدق وفائه،ودُفن بعد صلاة عصر ذلك اليوم في المدرسة العزيزية قرب المسجد الأموي فيدمشق، إلى جوار الملك نور الدين زنكي، وعندما فُتحت خزانته الشخصية لم يكن فيها ما يكفي من المال لجنازته، فلم يكن فيها سوى سبعة وأربعين درهمًا ناصريًا ودينارًا واحدًا ذهبًا، ولم يخلف ملكًا ولا دارًا، إذ كان قد أنفق معظم ماله في الصدقات.

في ساعة موته، كتب القاضي الفاضل، قاضي دمشق، إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب رسالة قال فيها: «﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾۝﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ كتبت إلى مولانا الملك الظاهر أحسن الله عزاءه، وجبر مصابه، وجعل فيه الخلف من السلف في الساعة المذكورة وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديدًا، وقد حضرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد ودعت أباك ومخدومي وداعًا لا تلاقي بعده وقبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله وحده مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضيًا عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وبالباب من الجنود المجندة، والأسلحة المعمدة ما لم يدفع البلاء، ولا ما يرد القضاء، تدمع العين، ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا يوسف لمحزونون. وأما الوصايا، فما تحتاج إليها، والأراء، فقد شغلني المصاب عنها، وأما لائح الأمر، فإنه إن وقع اتفاق، فما عدمتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك، فالمصائب المستقبلة أهونها موته، وهو الهول العظيم والسلام».

وكان ڤيلهلم الثاني إمبراطور ألمانيا عندما زار دمشق توجه إلى مدفن صلاح الدين ووضع باقة زهور جنائزية على قبره عليها نقش معناه "ملك بلا خوف ولا ملامة، علّم خصومه الفروسية الحقيقية"،[١٦٤] كما أهدى نعشًا رخاميًا للضريح إلا أن جثمان صلاح الدين لم يُنقل إليه، وبقي في النعش الخشبي، وذلك لأنالإسلام يُحرّم نبش القبور وإخراج الأموات لأغراض غير شرعيّة ويُصنّف ذلك انتهاكًا لحرمة القبر، لهذا بقي النعش الهدية في الضريح خاويًا إلى اليوم.

الدولة الأيوبيّة بعد صلاح الدين

قسّم صلاح الدين دولته قبل وفاته بين أولاده وأفراد من عائلته، فجعل إمارة دمشق لابنه الأفضل نور الدين علي، وهو أكبر أولاده، وأوصى له بالسلطنة، وجعل الديار المصرية لولده العزيز عثمان، وإمارة حلب لولده الظاهر غازي غياث الدين، وترك الكرك والشوبك وبلاد جعبر وبلدانًا كثيرة قاطع الفرات لأخيه العادل،وحماة لابن أخيه محمد بن تقي الدين عمر، وحمص والرحبة وغيرها لحفيد عمه شيركوه، أسد الدين شيركوه بن ناصر، واليمن بمعاقله ومخاليفه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخي صلاح الدين.

ولم يلبث الخلاف أن دبّ بين أولاد صلاح الدين، مما جعل عمهم العادل يعزلهم ويقوم بتوحيد البيت الأيوبي تحت رايته. وكما فعل صلاح الدين من قبل، فعل أخوه الملك العادل، فقسّم أراضي دولته بين أبنائه وهو على قيد الحياة، ولكن هؤلاء الإخوة لم يكونوا على وفاق بعد وفاة أبيهم، فكانوا يُحاربون بعضهم بعضًا، بالرغم من أن الصليبيين كانوا يفيدون من هذا الخلاف، وبعدهم جاء أولادهم، فلم يكونوا خيرًا من آبائهم في صلاتهم فيما بينهم وبين أبناء عمهم، ولكن واحدًا منهم استطاع أن يلمع في ظلام هذا الخلاف، ذلك هو "الصالح أيوب"، حفيد الملك العادل، الذي أعاد توحيد دولة صلاح الدين تحت سلطانه. ولمّا مات الصالح أيوب تولّى ابنه توران شاه السلطنة، لكن مماليكه ائتمروا به وقتلوه، ثمّ نصبوا زوجة أبيه "شجرة الدر" سلطانة عليهم، وبهذا زالت الدولة الأيوبيّة في مصر وقامت مكانها دولة المماليك.

أسرته

وفقًا لعماد الدين الأصفهاني، فقد أنجب صلاح الدين الأيوبي خمسة أبناء قبل مغادرته مصر في عام ١١٧٤م. ابنه الأكبر الأفضل وُلد في عام ١١٧٠م وأنجبت له زوجته شمسة التي اصطحبها معه إلى الشام ولده عثمان، وُلد في عام ١١٧٢م في مصر، ثم أنجبت طفلاً آخر في عام ١١٧٧م. بينما ذكر أبو العباس القلقشندي، أن ولده الثاني عشر وُلد في مايو سنة ١١٧٨م، بينما ذكر الأصفهاني، أن هذا الطفل كان ابن صلاح الدين السابع. كما وُلد له مسعود في عام ١١٧٥م ويعقوب في عام ١١٧٦م، وهذا الأخير من زوجته شمسة. تزوج صلاح الدين من أرملة نور الدين زنكي عصمة الدين خاتون في سبتمبر سنة ١١٧٦م، وانجبت له إحدى زوجاته غازي وداود في عامي ١١٧٣م و١١٧٨م على التوالي، وأنجبت له أخرى إسحق في عام ١١٧٤م وولدًا آخر في شهر يوليو من سنة ١١٨٢م.

صلاح الدين في الوعي العربي والغربي

بالرغم من أن الدولة التي أسسها صلاح الدين لم تدم طويلاً من بعده إلا أن صلاح الدين يُعَدُّ في الوعي العربي الإسلامي محرر القدس، ومع تصاعد مشاعر القومية العربية في القرن العشرين، ولا سيما في وجود الصراع العربي الإسرائيلي، اكتسبت بطولة صلاح الدين وقيادته أهمية جديدة، فقد كان في تحريره للقدس من الصليبيين مصدر إلهام لمعارضة العرب في العصر الحديثللصهيونية. كما استُلهمت شخصيته في الملاحم والأشعار وحتى مناهج التربية الوطنية في الدول العربية، كما أُلّفَت عشرات الكتب عن سيرته، وتناولتها المسرحيات والتمثيليات والأعمال الدرامية. لا يزال صلاح الدين يضرب به المثل كقائد مسلم مثالي واجه أعداءه بحسم ليحرر أراضي المسلمين، دون تفريط في الشهامة والأخلاق الرفيعة.

علاوة على ذلك، كان يُنظر إلى وحدة العالم العربي تحت راية صلاح الدين رمزًا مثاليًا للوحدة الجديدة التي سعى إليها القوميون العرب، بقيادة جمال عبد الناصر. لهذا السبب، أصبح نسر صلاح الدين رمزًا لدولة ما بعد الملكية في مصر، واعتمد لاحقًا كشعار لعدد من الدول العربية الأخرى مثل العراق وفلسطين واليمن وسوريا. بل إن هناك محافظة في العراق سُمّيت على اسمه، إضافة إلى جامعة صلاح الدين في أربيل أكبر مدن كردستان العراق.

يوجد عدد قليل من المباني منذ عهد صلاح الدين ما زالت باقية في المدن الحديثة. فقد كان صلاح الدين الأيوبي أول من حصّن قلعة القاهرة (١١٧٥-١١٨٣) مدخلا ذلك الطراز المعماري العسكري إلى مصر الذي لم تعرف قبله سوى القصبات الشمال أفريقية، و نموذج آخر عليه و إن كان أصغر قلعة الجندي في سيناء، والتي تشرف على طريق القوافل الذي يربط مصر بالشرق الأدنى. في تلك القلعة، عثر فريق آثار فرنسي عام ١٩٠٩م، على عدد من الغرف المقببة الكبيرة المنحوتة في الصخر، بها بقايا متاجر وصهاريج مياه.

كذلك يُطلق بعض المسلمين على أولادهم الذكور اسم "صلاح الدين" تيمنًا بهذا القائد، على الرغم من أن هذا الاسم كان لقبًا للسلطان الأيوبي خُلع عليه بعد إسقاطه الدولة الفاطمية وقتاله الصليبيين.

في الوعي الأوروبي الغربي :

بالرغم من كون صلاح الدين خصمًا للأوروبيين، فإنه ظل في الوعي الأوروبي نموذجًا للفارس الشهم الذي تتجسد فيه أخلاق الفروسية بالمفهوم الأوروبي، حتى أنه توجد ملحمة شعبية شعرية من القرن الرابع عشر تصف أعماله البطولية. فعلى الرغم من المذبحة التي قام بها الصليبيون عندما احتلوا القدس في عام ١٠٩٩م، فقد عفا صلاح الدين وسمح للمسيحيين الغربيين بالمغادرة مع بقايا الجيش المسيحي المنهزم، طالما أنهم كانوا قادرين على دفع الفدية التي فرضها عليهم. كما عومل

الأرثوذكس (ومنهم مسيحيون عرب) معاملة أفضل لأنهم عادة ما كانوا يعارضون الغزو الأوروبي الصليبي.

بالرغم من الاختلاف في العقيدة فإن القُواد المسيحيين امتدحوا صلاح الدين، خصوصًا ريتشارد قلب الأسد، الذي يُروى أنه قال عنه أنه أمير عظيم وأنه بلا شك أعظم وأقوى قائد في العالم الإسلامي؛[١٦٩] كما يُروى أن صلاح الدين ردَّ بأنه لم يكن هناك قائد مسيحي أشرف من ريتشارد. وبعد معاهدة الرملة، تبادل صلاح الدين وريتشارد الهدايا كرمز للاحترام المتبادل، ولكنهما لم يلتقيا قط وجهًا لوجه.

قال عنه المؤرخون الأوروبيون أنه "من الحق أن كرمه وورعه وبعده عن التعصب؛ تلك الليبرالية والنزاهة التي كانت النموذج الذي ألهم مؤرخينا القدماء؛ هي ما أكسبه احترامًا في سوريا الإفرنجية لا يقل عن الذي له في أرض الإسلام."

وعلى النقيض، ووفقًا لبعض المصادر، فخلال الحرب العالمية الأولى، أعلن القائد البريطاني إدموند ألنبي بفخر أن "اليوم انتهت الحروب الصليبية" رافعًا سيفه نحو تمثال لصلاح الدين الأيوبي بعد الاستيلاء على دمشق، وهي العبارة التي لازمت ألنبي طوال حياته، وهو ما احتج عليه بشدة ضد من يصفون غزوه لفلسطين عام ١٩١٧م بالحملة الصليبية. وفي عام ١٩٣٣م، ذكر ألنبي أن أهمية القدس تكمن في أهميتها الاستراتيجية، ولم يكن هناك دوافع دينية لتلك الحملة.[١٧٠] كما احتفلت الصحافة البريطانية أيضًا باحتلال الشام برسم هزلي لريتشارد قلب الأسد وهو ينظر إلى القدس وكتب تحتها عبارة "أخيرًا، تحقق حلمي". وبعد أن

دخل الفريق أولالفرنسي هنري غورو المدينة في شهر يوليو من عام ١٩٢٠م، ركل قبر صلاح الدين الأيوبي وهو يصيح "استيقظ يا صلاح الدين، قد عدنا تواجدي هنا يكرس انتصار الصليب على الهلال".

مما يُروى عنه

ذكر بهاء الدين الأصفهاني، أنه في شهر أبريل من سنة ١١٩١م، كانت امرأة من الفرنجة قد سرق منها طفلها الذي يبلغ من العمر ثلاث شهور، وبيع في السوق، فنصحها الفرنجة بالتظلم لصلاح الدين الأيوبي نفسه، فأمر صلاح الدين باستعادة الطفل من ماله الخاص لأمه، وأعادها إلى مخيمها.[١٧٣]

صلاح الدين في الإعلام والأدب

الإعلام

ظهرت شخصية صلاح الدين في عدد من الأفلام السينمائيّة والمسلسلات التلفزيونية، وفي أغلب الأحيان أدّى الأدوار ممثلون عرب من سوريا أو مصر، أما أبرز الأعمال الفنية المرئية التي تناولت شخصية صلاح الدين: الناصر صلاح الدين، وهو فيلم يعود لسنة ١٩٦٣م من إخراج يوسف شاهين، وبطولة الممثل المصريأحمد مظهر، الذي أدّى دور صلاح الدين، ومسلسل صلاح الدين الأيوبي من بطولة الممثل السوري جمال سليمان. أما أبرز الأعمال الفنية السينمائية التي تناولت شخصية صلاح الدين، فكان فيلم مملكة السماء (بالإنگليزية: Kingdom of Heaven) للمخرج البريطاني السير ريدلي سكوت، وفيه أدّى الممثل السوريغسان مسعود دور صلاح الدين، وقد استُقبل هذا الفيلم بالترحيب في العالمين العربي والإسلامي، وقال رواد دور السينما إنه يقدم شيءًا مختلفًا عن الصورة النمطية للعرب والمسلمين في أفلام هوليوود بوصفهم إرهابيين، كذلك أُثني على أداء غسان مسعود لدور القائد التاريخي، وعلى نص وإخراج ريدلي سكوت، الذي صوّر صلاح الدين بأمانة شديدة وأظهر جوانب الفروسية في شخصه، والاحترام المتبادل بينه وبين بلدوين الرابع ملك بيت المقدس، وقد قال بعض النقّاد أن غسان مسعود كان سيترك انطباعًا أفضل إذا ما أعطاه سكوت مساحة أكبر "فقد رأينا لمحات من بطولته، وذلك لا يلبي كل الطموحات، ولكن لا نستطيع أن

نطلب من ريدلي سكوت أن يقدم كل شيء، حسبه إنه قدم صورة بها قدر من التوازن".

الأدب

أثارت رواية طارق علي "كتاب صلاح الدين الأيوبي"،الاهتمام بصلاح الدين والعالم الذي عاش فيه. كما أن الشاعر دانتي أليغييري مؤلف الكوميديا الإلهيةقد وضعه في المطهر مع عدد من الشخصيات التي عدها كافرة – وفق معتقده المسيحي الكاثوليكي – لكنها في نظره شخصيات صالحة وسامية أخلاقيًا (وضع دانتي الرسول محمد في المطهر كذلك). كما أن صلاح الدين يُصوِّر بشكل مقبول في رواية والتر سكوت "التعويذة" (بالإنكليزية: **The Talisman**) المكتوبة سنة ١٨٢٥م.

المصادر والمراجع

- دروس وتأملات في الحروب الصليبية لأبي فارس
- هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي د.عماد الدين
- تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد عمران
- الإسلام وحركة التاريخ، أنور الجندي
- الغزو الصليبي والعالم الإسلامي د. علي عبد الحليم محمود
- مملكة بيت المقدس الصليبية، عمر كمال توفيق ،
- العدوان الصليبي على العالم الإسلامي ، صلاح الدين نوار
- الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، شاكر أحد أبو زيد
- الحركة الصليبية (٢٠/١) سعيد عاشور الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري محمد حامد الناصر
- الجهاد والتجديد، محمد حامد
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية د. أحمد شلبي (٤٣٨/٥).
- أوروبا في العصور الوسطى (٤٩/٢) سعيد عبدالفتاح عاشور الوسيط في تاريخ فلسطين
- جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، د. فايد حماد عاشور

فهرس